الصراط المستقيم

يوسف زيتون

الصراط المستقيم

يُبدد هذا الكتاب الحيرة في تعريف الإيمان وفي كيفية تحقيقه، فهو المهمة الأولى والأهم في حياة الإنسان.

﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلۡنَاۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ﴾

ويُعيد هذا الكتاب نَظم عناصر الدين الأربعة: المنهج والإيمان والإنسان والواقع، بصيغة توضح وظيفة كل منها، وعلاقتها ببعضها، بطريقة أسهل إلى الأفهام، وأقرب إلى الوجدان، وأكثر ملاءمة لروح العصر وتحدياته.

هذه الصيغة هي ما نسميها "الصراط المستقيم"

9 789778 574012

إضافة

الصراط المستقيم

الصراط المستقيم

يوسف زيتون
الطبعة الأولى : ٢٠٢٠
رقم الإيداع : ١٤٣٥٤ / ٢٠٢٠
ISBN 978-977-85739-3-0
١٣٦ ص ، ٢٠ سم

دار إضافة
للنشر والتوزيع

الإسكندرية

ج٠م٠ع

{جميع الحقوق محفوظة ©}

المراجعة اللغوية: عادل أبو الأنوار
غلاف وإخراج فني: أمير مصطفى

www.idafabooks.com

الصراط المستقيم

يوسف زيتون

إضافة
للنشر والتوزيع

﴿أَفَمَن يَمۡشِي مُكِبّٗا عَلَىٰ وَجۡهِهِۦٓ أَهۡدَىٰٓ أَمَّن يَمۡشِي سَوِيّٗا عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٢٢﴾ الملك: ٢٢

الفهرس

مقدمة ٧
أولاً: هدايات الله ١١
ثانياً: الدين ١٣
ثالثاً: المنهج ١٤
رابعاً: الصراط المستقيم ١٥
منهج الله تعالى ٢١
مفتاح فهم المنهج ٢١
عن المنهج ٢٥
خصائص العقيدة الإسلامية ٢٧
أركان الإسلام ٣٠
مكونات المنهج ٤٠
مصادر المنهج ٤٣
خصائص المنهج الإسلامي ٤٦
الوسطية ٤٧
وأخيراً ٥٢
الإيمان ٥٤
منطلق الإيمان ٦٣
حركة الإيمان ٦٧
كيف تحقق الإيمان؟ ٦٩

الإيمان الأول ٧٠
القرآن ٧٢
العبادة ٧٦
تحقيق التوحيد الخالص ٨٠
منظومة التوحيد ٨٢
معالم منظومة التوحيد ٨٦
وحدة الحق ٨٩
وحدة الغاية ١٠٣
وحدة المهمة ١٠٦
وحدة المعركة ١١٠
الإنسان المؤمن ١١٨
الواقع ١٢٥
المشروع ١٢٨

مقدمة

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله... ثم أما بعد،

وَرِث هذا الجيل المسلم تركة ثقيلة، مليئة بالإخفاقات، لكنه ورث معها أيضًا تجارب الأولين والآخرين، تجارب الأمس القريب والماضي البعيد، تجارب تعصمه من الزلل إذا أحسن فهمها والإفادة منها، تجارب تحمل سنن الله التي تدله على الصواب، وتهديه سبل الرشاد.

وسط هذا الركام البائس الذي نعيشه اليوم، يخرج هذا الجيل المفعم بالأمل، وحتى لا يكون كغيره من الذين سبق حماسُهم وعيَهم، وعملوا للإسلام قبل أن يعرفوه، وانطلقوا إلى الميدان الخطأ في الوقت الخطأ، عليه ألا يشرد بعيدًا وكتاب الله بين يديه، يكفيه ويغنيه ويدله على الطريق.

بيد أنّ دين الله أصبح لدى الكثيرين غريبًا، كأنه ألغاز صعبة الفهم، أو طلاسم صعبة الفك، باهت المعالم، مجهول الغايات، مختزل في عبادات روتينية، وطقوس موسمية، وتقاليد ورثها الأبناء عن الآباء، وربما لو كان الآباء على دينٍ غيره لورثوه!... اسمٌ بلا جوهر،

كالوعاء الفارغ من المضمون، فما عاد يؤثّر في نفوسهم، ولا يحملهم على فعل ما يرضي ربهم، ولا يحرضهم على البذل والعطاء.

بل العكس، أصبح -بما أخطأوا فهمه- يخدّرهم من آلام الظلم! ويحلّي لهم مرارة الفقر! ويجمّل لهم قبح الجهل! فأي دين هذا الذي انحرفوا إليه واستبدلوا به دين الله القويم؟!

﴿قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩٣﴾﴾

البقرة: ٩٣

إننا اليوم نريد أن نعيد نظم عناصر دين الله بعلاقة واضحة، تعيد له جوهره ومضمونه، وحيويته وتأثيره.

إلى هذا الجيل الطامح إلى الرفعة، والباحث عن الحقيقة، نقدم هذه الصفحات، والتي نعتبر أنها تحمل الحد الأدنى من الفهم المطلوب لدين الله، نجتهد أن نعرضه بطريقة أكثر ملاءمة للواقع، وأكثر قدرة على الوصول إلى الأفهام، وملامسة الوجدان.

أولاً: هدايات الله

الفطرة، هي التي عليها خلق الله الإنسان ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ﴾ الروم: ٣٠

وهي التي يحب بها الخير ويبغض الشر، ويستحسن بها الطيب ويستقبح الخبيث، وهي التي تدله على الحق وترده عن الباطل.

لقد أودع الله دليل وجوده، وبرهان ألوهيته، في فطرة الإنسان قبل أن يُخرجه من عالم الذر: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾﴾ الأعراف: ١٧٢

وجعل الدين هو فطرة الإنسان ذاتها: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ الروم: ٣٠

لم يكتف الله للإنسان بهداية الفطرة، التي قد تفسد نتيجة الإسراف في اتباع الأهواء، فجعل له العقل، دليله إلى الله، وهداية له من الضلال، إذا لم يعطّله، وإذا استعمله بتجرد في التفكير ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟﴾ سبأ: ٤٦

فسبيل الإنسان للهداية: الفطرة السليمة، والعقل المتجرد، وما أرسل الله الأنبياء إلا ليردّوا الناس إلى فطرتهم ألا يفسدوها، وإلى عقولهم ألا يعطّلوها، وما أنزل معهم المنهج إلا ليصون الفِطر ويستنهض العقول، فيهتدي الناس ويسعدوا.

إنّ كل ما من شأنه إفساد فطرة الإنسان أو تعطيل عقله، ليس من دين الله، ولا من هدي الأنبياء والمرسلين.

إذا فسدت الفطرة وتعطل العقل فلن ينفع الإنسان دينٌ يهدي ولا نبيٌ ينصح. ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَث أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ ﴾

الأعراف: ١٧٥ - ١٧٦

وبهذا تكتمل هدايات الله للإنسان: الفطرة والعقل والرسل والمنهج، وما يملك الناس أمام اكتمال هدايات الله إلا أن يستجيبوا لوخزات الفطرة ونداءات العقول ومنهج الرسول، فيهتدوا إلى الصراط المستقيم.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِهِۦ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِى رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿١٧٥﴾ ﴾ **النساء: ١٧٤ - ١٧٥**

ثانياً: الدين

الدين هو الخضوع، ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾ الزمر: ٣ أي ألا لله الخضوع الخالص، ﴿وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾ الأنفال: ٣٩ أي ويكون الخضوع كله لله. الدين هو الذي يصنع للإنسان منظومة حياته، ويحدد أولوياته، ويرسم وتوجهاته، ويصوغ تصوراته، ويوجّه تحركاته، حسب ما يقتضيه هذا الخضوع.

لكل منا -لا محالة- دين يخضع له، وإنّ الذي يأبى الخضوع لله باختياره، إنما يخضع لكل شيء وأي شيء رغمًا عنه، ربما للمال أو للهوى أو لبشر من جنسه، أو لجنس أدنى منه كالبقر والحجر: ﴿فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾﴾ يونس: ٣٢

الخضوع لله إنما يكون وفقًا للمنهج الذي أنزله سبحانه ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ آل عمران: ١٩.

إنّ الله الذي ارتضى للناس الإسلام دينًا، جعله سبحانه منهج حياة ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾﴾ الأنعام: ١٦٢ أي منظومة حياة كاملة، لا ينقصها شيء، ولا تحتاج من يكملها، وقد أكملها صانعها جل وعلا ((الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ)) أما باقي التصورات المنعزلة عن وحي الله، فهي مُرقّعة، لم يكملها ترقيعها.

ثالثاً: المنهج

هو الجزء النظري من دين الله، والذي أنزله سبحانه ليباشر حركة الحياة.

﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ١﴾ إبراهيم: ١

من لدن آدم، وحتى النبي محمد، دين الله كان وما زال واحدًا في أصله العقدي ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ ٢٥﴾ الأنبياء: ٢٥

وإنما تعددت المناهج بتعدد الكتب السماوية، وإننا نؤمن بكل ما أنزل الله من كتاب:

﴿وَقُلۡ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٖۖ﴾ الشورى: ١٥

ونؤمن أن القرآن المجيد هو الإصدار الإلهي الأخير للكتب السماوية، والمتمم لها والمهيمن عليها.

﴿وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَمُهَيۡمِنًا عَلَيۡهِۖ﴾ المائدة: ٤٨

رابعاً: الصراط المستقيم

الصراط المستقيم هو دين الله:

﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾﴾ الأنعام: ١٦١،

هو ملة إبراهيم عليه السلام:

﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ۚ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾﴾

النحل: ١٢٠ – ١٢١،

وهدي موسى وهارون عليهما السلام:

﴿وَهَدَيْنَٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١١٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١١٩﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٠﴾﴾ الصافات: ١١٨ – ١٢٠

وعيسى عليه السلام:

﴿وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦٤﴾﴾ الزخرف: ٦٣ – ٦٤

هو صراط كل الأنبياء والمرسلين وهديهم:

﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ ۖ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾﴾ الأنعام: ٨٤ - ٨٧

وهو الذي بُعث عليه النبي محمد عليه الصلاة والسلام:

﴿إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣﴾ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤﴾﴾ يس: ٣ - ٤

وهو هديه ورسالته: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾﴾ الشورى: ٥٢

هو الطريق الوحيد الموصول بالله تعالى:

﴿إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾﴾ هود: ٥٦

والذي تكفل سبحانه بحفظه، وحفظ استقامته من العوج:

﴿وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾﴾ يس: ٦١

الصراط المستقيم هو خط الهداية الذي يربط كل من آمن بوحدانية الله تعالى، من لدن آدم إلى قيام الساعة، يجمع شملهم ويوحد قلوبهم ويوثق أخوّتهم ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾﴾ الأنبياء: ٩٢

على الأمة المسلمة اليوم ألا تُعرِض عن صراط الله المستقيم، وأن تتخذه سبيل وحدتها ومشروع نهضتها

﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾ الأنعام: ١٥٣

قد لا يدرك الإنسان الغايات العظمى التي يتطلع إليها لقصر عمره، ولكن الغاية الأعظم التي ينبغي ألا يفرط فيها، والتي لا تحتاج منه عُمراً طويلاً، هي أن يبقى على صراط الله المستقيم، يعيش عليه ويموت عليه.

إنّ أكثر ما يدعو المسلم به ربه هو الهداية إلى الصراط المستقيم، في كل صلاة، بل وفي كل ركعة:

﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾﴾ الفاتحة: ٦

وقد جعل الله قراءة الفاتحة من أركان الصلاة، التي تبطل بدونها.

ذلك لأن الهداية إلى الصراط المستقيم من فضل الله الذي يؤتيه من يشاء ﴿وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢١٣﴾﴾ البقرة: ٢١٣

ولأن غاية إبليس والشياطين -الأزلية والأبدية- أن يصدوا الناس عنه.

﴿قَالَ فَبِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي لَأَقۡعُدَنَّ لَهُمۡ صِرَٰطَكَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ١٦﴾ **الأعراف**: ١٦

وكذلك هي غاية أعداء الله. ﴿ٱلَّذِينَ يَسۡتَحِبُّونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا عَلَى ٱلۡأٓخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلِۭ بَعِيدٖ ٣﴾ **إبراهيم**: ٣

من أجل ذلك كان لا بُدّ من الاعتناء الشديد بصراط الله المستقيم، وتجديد فهمه، وتجديد عرضه، بطريقة أكثر ملاءمة لروح العصر ونفسية العصر وتحديات العصر.

كثيرًا ما استخدم رسول الله صلى الله عليه وسلم الرسومات لتوضيح المعلومات وتبسيط الأفكار، وانطلاقا من هذا الهدي النبوي، نستخدم الشكل التالي لتوضيح معنى الصراط المستقيم ومكوناته وخط سيره.

الصراط المستقيم

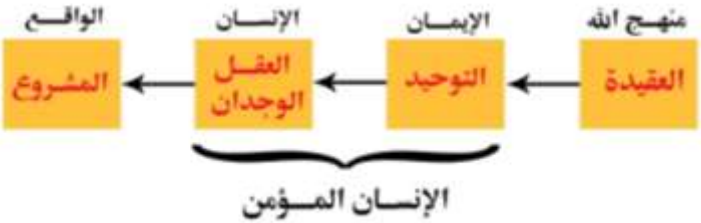

- ملحوظة: الشكل لا ينشئ حقيقة، وإنما يعبر عنها.

من خلال الشكل السابق نريد أن نقول:-

- إنّ صراط الله المستقيم -الذي هو دين الله- له أربعة عناصر: هي المنهج والإيمان والإنسان والواقع، وهو معنى شمول دين الله.

- ربط العناصر الأربعة بعلاقة وطيدة لا انفصام لها، بحيث إذا فقدنا عنصرًا منها تنتفي صفة الصراط المستقيم عن الطريق الذي نسلكه، وتبرز أهمية كل عنصر، ووظيفته، ومكانه من العناصر الأخرى، مما يحول دون أن يصير دين الله وعاءًا فارغًا من المضمون، ويحول دون تجزئته وقبول بعضه ورد بعضه.

- إن المنهج الإلهي هو أول وأساس الصراط المستقيم، وإنما يبدأ الانحراف من التخلي عنه، أو من الخلل في فهمه.

- إنه لا علاقة حقيقية بين الإنسان وبين منهج الله إلا عبر رابط الإيمان، ولا انتفاع حقيقياً للإنسان بمنهج الله إلا بالإيمان، فإذا ضعف الإيمان أو غاب، ضعفت علاقة الإنسان بمنهج الله وغابت.

- ولا يصح الإيمان ولا يثمر إلا إذا انبنى على فهم واعٍ لمنهج الله، والإيمان على غير منهج الله إنما هو من تلبيس إبليس، أو من خداع النفس.

- لا يمر المنهج إلى الواقع إلا عبر منظومة "الإنسان المؤمن"، الذي بدونه يظل المنهج معزولاً عن الواقع.

- الإيمان هو الذي يصنع الإنسان القادر على الانتفاع بمنهج الله، وعلى ربطه بالواقع، وإن الفجوة الهائلة بين منهج الله وواقعنا اليوم، سببها الحقيقي غياب -أو ندرة- هذا الإنسان المؤمن صحيح الإيمان.

- الواقع هو ثمرة الصراط المستقيم، ولا قيمة لدين منبتّ الصلة عن الواقع أو لا يباشر تنظيم حياة الناس وقياد سيرهم.

منهج الله تعالى

هو أول عناصر الصراط المستقيم وأساسه المتين

﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾﴾

المائدة: ١٥ – ١٦

وقبل الشروع في الحديث عن منهج الله، لا بُدّ أولًا من وقفة لا غنى عنها:

مفتاح فهم منهج الله:

كلما اشتدت المِحن وتفاقمت الأزمات، كلما كانت حاجتنا أكبر لفهمٍ أدق وأعمق لمنهج الله، لنتلمس جوهره ومضمونه، وندرك مقاصده وغايته، فنستلهم منه الحلول والهداية

﴿هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠٣﴾﴾ الأعراف: ٢٠٣

لذا فنحن اليوم لا نريد لمنهج الله الفهم العادي، وإنما نريد الفهم الذي يمكّنا من اجتياز هذه المرحلة الصعبة.

كما لا نريد الفهم القديم؛ لأن ملاءمة منهج الله لكل عصر مرهون بتجديد فهمه، وتجديد عرضه، بأفضل طريقة تساعد على اجتياز تحديات العصر.

إنما نريد لمنهج الله الفهم الذي يثمر الإيمان، كما نريد الإيمان الذي يصحّح التصورات ويصوّب الأفكار ويلهب العواطف ويفجر الطاقات، فنعيد صياغة العقول والقلوب على أساس صحيح من فهم دقيق لمنهج الله.

بشكل عام: مفتاح الفهم هو الوعي:

﴿لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ ﴿١٢﴾﴾ الحاقة: ١٢،

ولعل الله قال في الآية السابقة "أذن" ولم يقل "عقول"، مع أن الوعي محله العقل وليس الأذن، ليرشدنا سبحانه إلى أن سبيل الوعي هو الاستماع بتجرد.

التجرد هو أن تتساوى كل القضايا أمام العقل حين الحكم عليها، والمفاضلة بينها، وأن يمتلك الإنسان الاستعداد الكافي لمراجعة ما يعتقده صوابًا، وقبول ما يظنه خطأً، بهدف الوصول إلى الحقيقة.

مفتاح فهم منهج الله الاستماع إلى القرآن بتجرد، فالذين يستمعون إلى القرآن بتجرد فرصتهم في الوصول إلى الحق أكبر.

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٧﴾﴾ يونس: ٦٧

واستجابتهم له أسرع ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾ الأنعام: ٣٦

أما الذين لم تتجرد عقولهم، ويحملون أحكامًا مسبقة لا تقبل النقض، وقرارات نهائية لا تقبل الرد، وليس لديهم الاستعداد للمراجعة، ولا الرغبة في الوصول إلى الحقيقة، أولئك لا ينفعهم سماع القرآن ولا غيره: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾ الحج: ٤٦

ومنهم الذين يستمعون بغرض النقض والطعن، من المستحيل أن يفهموا ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ ۖ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۖ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا ۖ﴾ الأنعام: ٢٥

إن الدعوة إلى التجرد بلغت في القرآن الكريم ما لم تبلغه في غيره، فقد أمر الله نبيه أن يقول للمشركين: ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾﴾ سبأ: ٢٤ - ٢٥

على الإنسان إذا أراد أن يمتلك التجرد اللازم لفهم منهج الله...

أولًا: ألا يستسلم لهوى نفسه؛ لأن غلبة الأهواء تصمّ الآذان وتعمي الأبصار وتعطل العقول: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾﴾ الجاثية: ٢٣

ثانيًا" ألا يستسلم لأعداء الله الذين يلغون في القرآن ليصدوا الناس عنه وعن سماعه وتدبره، ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾﴾ فصلت: ٢٦

وينفقون الأموال ليغيّبوا العقول، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ الأنفال: ٣٦

لأنهم يعلمون أن العقول إذا وعت وتجردت لاختارت منهج الله.

عن المنهج:

الإسلام: عقيدة الإيمان بوحدانية الله.

نعم الإسلام عقيدة، ولو فقدها المسلم فلن يدرك بعدها شيئًا من دينه، ولو اعتنى بها لأدرك الدين كله.

العقيدة ليست علمًا من علوم الدين، ولا ينبغي لها ذلك، العقيدة هي الدين.

الإسلام عقيدة إفراد الله بالخضوع والطاعة، بحيث تكون كل الطاعات فرعًا من طاعته سبحانه وجزءًا منها، ومنضبطة بضوابطها: لا تناقضها ولا تتعدى حدودها، فلا طاعة أولى ولا أحب من طاعة الله.

الإسلام عقيدة كلية: تهيمن على كل حياة المسلم، كاملة: أكملها الله وأتمها فلا اجتهاد فيها، مستقلة: مغايرة لكل العقائد والتصورات الأخرى المنعزلة عن وحي الله.

إننا لا نقصد بالعقيدة ذلك المفهوم المعرفي النظري، وإنما نقصد متطلبها الإيماني وأثره في النفوس.

إن عقيدة الإسلام هي محور التاريخ، وما التاريخ إلا صفحات لحال الناس معها، والذي يقرأ التاريخ بمعزل عن عقيدة الإسلام لن يفهمه على النحو الصحيح، ولن يدرك سنن الله المبثوثة فيه، فالتاريخ ابن العقيدة.

إنما ينتصر المسلمون بانتصار عقيدتهم، ولا تنتصر العقيدة إلا إذا انتصرت في نفوس أصحابها، بأن تصبح هي أغلى ما يملكون، أغلى من النفس والمال والولد، ومن ثم تكون المساومة عليها أو التنازل عنها أمرًا غير وارد في قاموسهم

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ ٧﴾ **محمد**: ٧

وإلا فكيف ينصر الله قومًا يعلم هوان عقيدتهم عليهم، وأنهم سيتنازلون عنها عند أول اختبار، وسيفرّطون فيها عند أول ابتلاء؟!

خصائص العقيدة الإسلامية:

خصائص الشيء هي التي تصفه، وتحدد معالمه، وتوضح حقيقته، وتبرز جوهره، وعقيدة التوحيد لها ثلاث خصائص رئيسة: استسلام، واستعلاء، وتحرر.

- فهي عقيدة استسلام وخضوع لله وحده

﴿وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ وَأَسۡلِمُواْ لَهُۥ مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلۡعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ٥٤﴾ الزمر: ٥٤

بأن لا يجد المسلم في نفسه حرجًا من الاستسلام التام لما أنزل الله وحكم: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيۡنَهُمۡ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَرَجٗا مِّمَّا قَضَيۡتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسۡلِيمٗا ٦٥﴾ النساء: ٦٥

- ثم هي عقيدة استعلاء على ما سوى الله، استعلاء بغير كبر ولا غرور؛ لأنه لا خضوع حقيقيًا لله وحده إلا بالاستعلاء على ما سواه، فالمؤمن لا يساوي ولا يعدل بالله تعالى شيئًا.

﴿ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡ يَعۡدِلُونَ ١﴾ الأنعام: ١

إن المؤمن مستغنٍ بالله عمن سواه، مستعلٍ به على غيره، فهو لا يقبل الدنيّة، ولا يركع لغير الله، ولا يخضع إلا أمام عظمته سبحانه وتعالى، ومهما مر به من محن، فإنه يصبر الصبر الجميل، الصبر الذي لا يشوبه فعلٌ ما يُنقص من قدره أو يحط من شأنه أو يقدح في إيمانه، كأن يخضع لأعدائه أو يداهنهم أو يتملقهم، استجابة لأمر الله.

﴿فَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعۡ مِنۡهُمۡ ءَاثِمًا أَوۡ كَفُورٗا ٢٤﴾ الإنسان: ٢٤

- ثم هي عقيدة تحرر، فإن "لا إله إلا الله" تُحرر الإنسان من الخضوع لغير الله، ومن القيود والأغلال: ﴿وَيَضَعُ عَنۡهُمۡ إِصۡرَهُمۡ وَٱلۡأَغۡلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتۡ عَلَيۡهِمۡ ١٥٧﴾ الأعراف: ١٥٧

ومن الحرج الذي يقيد مسيرته: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖ﴾ الحج: ٧٨

الحرية هي ضمان سلامة العقيدة من فتن المعتدين ﴿وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِۖ فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ فَلَا عُدۡوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ١٩٣﴾ البقرة: ١٩٣

إن الحرية في التصور الإسلامي منضبطة ومسؤولة: منضبطة بمنهج الله، ومسؤولة أي يقابلها تكليف وحساب.

وما منح الله الإنسان حرية اختيار أعماله إلا ليتحمل أمانة التكليف

﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾﴾ الأحزاب: ٧٢

جعل الله الكون مُسخّرًا بلا حرية، لمّا أعفاه من التكليف، وسخره لمن حمل التكليف، ليعينه على أداء مهمته

﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾﴾ الجاثية: ١٣

فكل تكليف يلزمه حرية عمل، وكل حرية يقابلها سؤال وحساب، وما كان الله ليحاسب من لم يمنحه حرية اختيار أعماله

﴿ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ ۖ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤٠﴾﴾ فصلت: ٤٠

الحرية ضرورة للقيام بالواجبات وأداء التكاليف، والأمة مسلوبة الحرية عاجزة عن القيام بدورها وأداء مهمتها.

أركان الإسلام:

للإسلام أحد عشر ركنًا، إذا سقط واحد منها انهدم بناء الإسلام في نفس صاحبه، وهي ستة أركان عقدية، وخمسة أركان تعبدية.
الأركان العقدية هي الحد الأدنى من الاستسلام العقلي والوجداني لله تعالى، وهي: -

أولا: الإيمان بالله تعالى

إن التسليم بوحدانية الله وصمديته وتفرده، كما جاء في سورة الإخلاص ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾ الإخلاص: ١ - ٤

وإن لم يصاحب هذا التسليم معرفة حقيقية بالله أو ارتباط حقيقي به سبحانه، يحفظ الإنسان داخل نطاق الإسلام، وهو الركن الأول والأكبر للإسلام.

ثانيا: الإيمان بالملائكة

إن إنكار وجود الملائكة يطعن في الرسالة المحمدية كلها؛ لأنه يطعن في القرآن الذي نزل بواسطة أمين الوحي جبريل عليه السلام

﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٩٢ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ۝١٩٣ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ۝١٩٤﴾ الشعراء: ١٩٢ - ١٩٤

ثالثا: الإيمان برسل الله وبعصمتهم

الإيمان بنبوة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ٤٥ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا ٤٦﴾ الأحزاب: ٤٥ - ٤٦

والإيمان بكل رسل الله، من نعرف ومن لا نعرف:

﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ١٣٦﴾ البقرة: ١٣٦

رابعا: الإيمان بكتب الله تعالى

الإيمان بالقرآن العظيم أنه كلام الله:

﴿تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ لَا رَيۡبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢﴾ السجدة: ٢

وأنه نزل مصدّقا لكل الكتب السماوية التي سبقته ومتمّمًا لها ومهيمنا عليها ﴿وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَمُهَيۡمِنًا عَلَيۡهِۖ﴾ المائدة: ٤٨

وأنه لا يوجد على وجه الأرض كتابٌ من عند الله صحيحٌ ومحفوظ يحمل الهداية للبشرية غير القرآن، وان كل الكتب السماوية الأخرى تم تحريفها وتغييرها، فلا يجوز أن نأخذ منها دليلا أو نبني عليها تصورًا: ﴿فَبِمَا نَقۡضِهِم مِّيثَٰقَهُمۡ لَعَنَّٰهُمۡ وَجَعَلۡنَا قُلُوبَهُمۡ قَٰسِيَةٗۖ يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَنَسُواْ حَظّٗا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ﴾ المائدة: ١٣

وأن هذا القرآن إنما نزل ليحكم:

﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِتَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُۚ وَلَا تَكُن لِّلۡخَآئِنِينَ خَصِيمٗا ١٠٥﴾ النساء: ١٠٥

ويسود: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ ٣٣﴾ التوبة: ٣٣

خامسًا: الإيمان باليوم الآخر والحساب والجزاء.

على هذا أقسم الله تعالى:

﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسۡـَٔلَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ٩٢ عَمَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٩٣﴾ الحجر: ٩٢ - ٩٣

وقال الله عن الذين ينكرون اليوم الآخر

﴿قَدۡ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتۡهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغۡتَةٗ قَالُواْ يَٰحَسۡرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطۡنَا فِيهَا وَهُمۡ يَحۡمِلُونَ أَوۡزَارَهُمۡ عَلَىٰ ظُهُورِهِمۡۚ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ٣١﴾ الأنعام: ٣١

إن الله لم يخلق الإنسان -عبثًا- ليطلقه في الأرض يفعل فيها ما يشاء بلا موعد يرجع فيه إليه ليحاسبه على ما فعل

﴿أَفَحَسِبۡتُمۡ أَنَّمَا خَلَقۡنَٰكُمۡ عَبَثٗا وَأَنَّكُمۡ إِلَيۡنَا لَا تُرۡجَعُونَ ١١٥﴾ المؤمنون: ١١٥

إن شعور الإنسان بأنه مطلوق بلا حساب، يغريه إلى الإجرام ويشجعه على الآثام، ومن ثم يفسد الاجتماع البشري، وإن شعور الإنسان بأنه مُحاسَب ولا ريب، يدفعه إلى المراجعة والتوبة والإحسان فيستقيم حال المجتمع.

إن ترتيب الجزاء على العمل أمر حسمه الله تعالى في كثير من الآيات المحكمات التي لا تحتمل التأويل، منها:

﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾﴾ **المدثر**: ٣٨

﴿كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴿٢١﴾﴾ **الطور**: ٢١

﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾﴾ **النجم**: ٣٩ - ٤١

﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾﴾ **الطور**: ١٩

﴿تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا ﴿٦٣﴾﴾ **مريم**: ٦٣

﴿وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾﴾ **الزخرف**: ٧٢

﴿أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾ **الأحقاف**: ١٤

كل هذه الآيات المحكمات وغيرها تثبت ترتيب جزاء الإنسان يوم القيامة على عمله.

وهذا لا يتعارض مع حديث رسول الله ﷺ:

"لا يدخل أحدكم الجنة بعمله ولكن برحمة الله"

لأن بين سعي الإنسان وبين بلوغه الجنة: رحمة الله، التي يجزي بها سبحانه على العمل المحدود الأجر غير المحدود، وعلى العمل القصير النعيم الخالد، والتي يوفّق الله بها المجتهدين إلى الطاعات، والتي يغفر بها الذنوب، ويعفو بها عن الزّلات، ولولا المغفرة والعفو ما دخل أحد الجنة ﴿تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾﴾ التوبة: ١١٨

إن رحمة الله ليست بديلا عن العمل، بل هي أكبر دافع للعمل، من أجل الفوز بها، فإن الذين يعملون ويجتهدون إنما يرجون رحمة الله ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢١٨﴾﴾ البقرة: ٢١٨

فما حال المفرطين والمُسيئين وما مصيرهم؟؟!!

إن الذين يقعدون ويسيئون "وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا" إنما يقولون على الله تعالى الباطل، أولئك يرد الله عليهم: ﴿أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَٰقُ ٱلْكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ وَدَرَسُواْ مَا فِيهِ ۗ وَٱلدَّارُ ٱلْأَخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٧٠﴾﴾ الأعراف: ١٦٩ - ١٧٠

يستحيل في العدل الإلهي، أن يتساوى المسيؤون بالصالحين

﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾﴾ الجاثية: ٢١

إن العدل الإلهي يقتضي بأن: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾﴾ فصلت: ٤٦

ولقد شكر الله سعي المؤمنين وجعل جزاءه الجنة

﴿إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴿٢٢﴾﴾ الإنسان: ٢٢

سادسا: الإيمان بقضاء الله وقدره:

﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾﴾ الحديد: ٢٢- ٢٣

الله تعالى يريد للإنسان أن يبقى دائمًا في حالة نفسية إيجابية، تعينه على القيام بمهامه، وأداء واجباته، بنفس قوية، وإرادة عنيدة، وقلب مطمئن، وصدر منشرح.

إذا تمكن الحزن من الإنسان، أورثه اليأس والهزيمة النفسية، الأمر الذي يبعده عن دائرة المنافسة والريادة، وإن الإيمان بقضاء الله وقدره يحول دون ذلك.

الإيمان بقضاء الله وقدره، يمنح الإنسان اطمئنان القلب، واستقرار الخاطر، والشجاعة، والقدرة على مواجهة المخاطر، واقتحام المجهول؛ لأنه يؤمن أنه لن يصيبه إلا ما قدره الله له:

﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾﴾ التوبة: ٥١

وأن كل ما يقدره الله هو الخير ولو رآه عكس ذلك، فقد قال سبحانه في الآية: كتب لنا، ولم يقل كتب علينا.

كما أنه يحصنه من إرجاف المرجفين به

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَقَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ كَانُوا۟ غُزًّى لَّوْ كَانُوا۟ عِندَنَا مَا مَاتُوا۟ وَمَا قُتِلُوا۟ لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِى قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٥٦﴾ وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿١٥٧﴾﴾

آل عمران: ١٥٦ – ١٥٧

ومن الريبة والحسرة:

﴿يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ ۗ يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ ۖ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا ۗ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ۖ وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾﴾ آل عمران: ١٥٤

قضاء الله وقدره لا يعني الجبر الإلهي للإنسان، فقول الله ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾﴾ الأنعام: ١١٢

يعني الخروج من الجبرية الإلهية وليس العكس، أي لو شاء الله لأجبرهم على عدم فعله، ولكنه تركهم لما سبقت كلمة الله في حرية الإرادة الإنسانية ﴿وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ﴾ الأنعام: ٣٤

بهذه الظنون تحجج الذين أشركوا، فرد الله عليهم

﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا ۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ ۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾﴾ الأنعام: ١٤٨

فالإنسان هو المسؤول عن أخطائه وليست أقدار الله وعليه التعلم منها وتداركها.

﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٦٥﴾﴾ آل عمران: ١٦٥

الأركان التعبدية

هي الحد الأدنى من الاستسلام العملي لله تعالى، وهي نطق الشهادتين، وإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج بيت الله الحرام لمن استطاع إليه سبيلا.

وهي أركان توقيفية، أي يفعلها المسلم كما فعلها رسول الله، فجميعها مندرجة تحت قول رسول الله ﷺ "صلوا كما رأيتموني أصلي".
على المسلم أن يتعلم كيفية أداء الفرائض والعبادات بشكل سهل وبسيط، بعيدًا عن الخلافات المذهبية والمزالق الفقهية اللانهائية، وعليه أن يستفتي قلبه، فإذا عُرض عليه أمران فليختر أيسرهما، وأقربهما إلى قلبه، وأكثرهما ملاءمة لظروفه وأحواله، وأنفعهما لدينه ومعاشه، ما لم يكن إثمًا.

إن أركان الإسلام التعبدية لا تغني عن أركانه العقدية، وإلا ما كان المنافقون في الدرك الأسفل من النار، وقد نطقوا الشهادتين وصلوا وصاموا وأدوا الزكاة وحجوا البيت

﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾﴾ النساء: ١٤٥

وإن أركان الإسلام العقدية لا تغني عن أركانه التعبدية والقيام بها على النحو الذي بيّنه الله تعالى ورسوله، وإلا لكان مسلمًا كل من لم ينطق الشهادتين، وقد قال الله تعالى عن لسان أصحاب النار.

﴿قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾﴾ المدثر: ٤٣

قد يسقط عن المسلم أداء بعض الأركان التعبدية بسبب عدم الاستطاعة، مثل الزكاة والحج، ولكن لا يسقط عنه أي من الأركان العقدية بأي حال من الأحوال.

مكونات المنهج:

المنهج عقيدة وشريعة، مُتطلب العقيدة الإيمان، ومُتطلب الشريعة العمل ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ خَيۡرُ ٱلۡبَرِيَّةِ ۝٧﴾ البينة: ٧

ثمرة العقيدة الفكر، وثمرة الشريعة الفقه، والعقيدة والشريعة ثابتان من الله، بينما الفكر والفقه متغيران من الناس.

بثوابت الدين تكون متانته وعصمته من التحريف، وحقيقة هدايته، فلا يُهتدى بمتغير، ولو تغير مكان النجوم ما اهتُدي بها، وبهذه المساحة الواسعة من المتغيرات الفكرية والفقهية تكون مرونة المنهج، وصلاحيته لكل الناس، في كل زمان ومكان.

إن الشريعة تحفظ العقيدة، وبدونها تصبح العقيدة مهددة، بلا حصن تشريعي يحفظها، وما كانت حرب أعداء الله على شريعة الله إلا ليخلصوا إلى العقيدة، وينالوا منها في صدور الناس.

والعقيدة هي الوعاء الذي يحمل الشريعة إلى الناس، وهي البوابة التي يمر الناس منها إلى شريعة الله، فالعقيدة لا بُدّ تسبق الشريعة إلى الناس.

إننا لا ندخل إلى شريعة الله من باب أنها الأصلح والأجدر على بسط العدل وحفظ الحقوق، وهي كذلك ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ۝٥٠﴾ المائدة: ٥٠،

وإنما ندخل إليها من باب أن امتثالها أمر منطقي، ولا منطقية أكبر منه، كونها شريعة الخالق الرازق المدبّر ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ۝٣﴾ فاطر: ٣

فهو سبحانه يعلم ونحن لا نعلم ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ۝٢١٦﴾ البقرة: ٢١٦

وما نعلم إلا ما علمنا الله ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝٧٨﴾ النحل: ٧٨،

والله أعلم بنا منا ﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ ۖ﴾ الإسراء: ٥٤

ومن ثم تصبح الاستجابة لشريعته جلّ وعلا الأولى منطقا وعقلا.

موضوعنا مع الذين يرفضون شريعة الله ليس جدواها أو صلاحيتها، فربما تُقر نفوسهم أنها الحق والأحق ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ﴾ النمل: ١٤،

وربما لا يكذّبوننا في أنها الأجدر والأصلح ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾﴾ **الأنعام: ٣٣**

وإنما موضوعنا معهم حتمية الخضوع لله

﴿فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلْنَا ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٨﴾﴾

التغابن: ٨

مصادر المنهج:

لأن الإسلام منهج إلهي، فإن مصدره -حصرًا- من الله تعالى، إما بكلامه: القرآن الكريم، وإما من خلال رسوله: السنة النبوية.

إن القرآن هو المصدر الأول للمنهج، وهو معيار قبول ما وصل إلينا من السنة النبوية المطهرة.
إننا نرد المتشابه من القرآن إلى المحكم منه، فلا غرو أن نرد المتشابه من السنة إلى المحكم من القرآن.

ما توافق مع روح القرآن ومنهجه مما وصل إلينا من أحاديث رسول الله، نقبله، وما تعارض معه، لا نقبله، ولا نرده، بل نصمت عنه؛ لأنه قد ينشأ عن قلة دراية، وحتى لا نكون أداة في يد الطاعنين في سنة رسول الله.
قد يتخيل البعض أن رسول الله كان يخرج إلى الناس، في لحظة من النهار، فينطق بالجملة والجملتين، مما يحفظه الناس، ثم يرجع إلى بيته، ويغلق عليه بابه، وهذا غير صحيح.

إن ما سجله رواة الأحاديث، هو مما التقطه الصحابة الكرام وحفظوه من نص كلام رسول الله، الذي كان جزءًا من سياقٍ وموضوعٍ ونقاشٍ ومداولة.

لقد كان الصحابة يناقشون النبي فيما يسمعون منه، ليفهموا ويستوضحوا ويستوثقوا، هذه المناقشة هي ما يمكن أن نسميها اليوم نقد متن الحديث، بأن نعرف زمانه ومكانه ومناسبته ومقامه وسياقه وموضوعه، للتأكد من حقيقة الغرض منه، وإنزاله منزلته الشرعية الأصح، وهو أمر لا يقل أهمية عن معرفة سنده، بل ربما يزيد.

إنّ تعمّد البعض سلخ الأحاديث النبوية عن سياقها، وعزلها عن مقامها، ليس كذبًا بيّنًا على رسول الله وحسب، وإنما هو كذب على الله، لأن الرسول مبلغ عن الله

﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١٧﴾﴾ النحل: ١١٦ - ١١٧

وقد قال ﷺ :"من كذب عليَّ متعمّدًا فليتبوأ مقعده من النار".

هؤلاء وجدوا في السنة النبوية الصحيحة ما إن سلخوه من سياقه، أو لوّوا عنق تأويله، ناسب مآربهم الخبيثة، وأغراضهم المريضة ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾﴾ آل عمران: ٧٨

إننا لم نر رسول الله ولم نسمع منه، ولم نر من رآه ولم نسمع ممن سمع منه، ووصلت إلينا أحاديثه الشريفة منقولة عن رواة لا نعرفهم، وانقطعت صلتنا بهم، وإنما حدثنا من نثق بهم أنهم ثقات.

نؤمن بأحاديث رسول الله بقدر درجة توثيقها، وبقدر موافقتها لهدي القرآن الكريم.

ولا يضير السنة المطهرة إن شابها بعض المكذوب، ولا تضرنا نحن هذه الشوائب، ما لم تمس حصن عقيدتنا، فإنه لا قيمة عقدية في غير ما أنزل الله في كتابه.

خصائص المنهج الإسلامي:

خصائص المنهج هي صفاته التي تحدد طبيعته وتوضح حقيقته، والتي لا يمكن فصلها عنه، إلا بتغير يطرأ على ذاته، فلا يمكن فصل خاصية الاستطراق عن الماء -مثلا- إلا إذا تغيرت ذاته، فتحول إلى بخار أو إلى ثلج، هكذا يظل المنهج محتفظًا بخصائصه ما لم يتغير في صدور الناس.

من أهم خصائص المنهج الوحدة والاكتمال والاستقلال والشمول والواقعية والوسطية، كلها خصائص غاية في الأهمية، بيد أننا نود التركيز على خصيصة الوسطية، لما لها من تأثير كبير في معالجة تحديات الواقع.

الوسطية:

كما أن خواص الشيء لا يمكن فصلها عنه، فإن خاصية الوسطية يستحيل فصلها عن المنهج الإسلامي، فالوسطية ليست اختيارًا، وإنما هي طبيعة المنهج، وطبيعة المسلم المستقيم عليه، وطبيعة الحضارة التي قامت به.

الوسطية الإسلامية ليست كالوسطية اليونانية القديمة، والتي يعرّفونها على أنها الفضيلة بين رذيلتين، أو الخير بين شرين؛ لأن هذه النظرية تفترض أن الطرفين شر محض، وأن الوسط شيء آخر غيرهما.

الوسطية الإسلامية هي جوامع الخير من كل الأطراف، فالإسلام لا يعتبر الأطراف شرًا محضًا يجب الابتعاد عنه، وإنما يرى في كل الأطراف جوانب من الخير والفضيلة يجب الانتفاع بها، وليس رفضها بالكلية.

هكذا تجمع الوسطية الإسلامية الفضيلة -ولو كانت صغيرة- من كل الأطراف لتؤلف بها حلا جامعًا للخير، بدون الانحياز لأي طرف، أو الاضطرار لقبوله بخيره وشره، أو تجرعه بحسنه وقبحه، وإنما الانتفاع بخيره ورد شره.

فالكرم وسطية المنهج بين الشح والتبذير، فهو يأخذ من الشح التدبير، ومن التبذير البذل والعطاء، هكذا يعلمنا الله تعالى في كتابه العزيز ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمۡ يُسۡرِفُواْ وَلَمۡ يَقۡتُرُواْ وَكَانَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ قَوَامٗا ٦٧﴾ الفرقان: ٦٧

والوسطية ليست المكان بين منهج الله وأهواء المبطلين، الذين يريدون تأليف دنيا هواهم باسم الدين الوسطي!

﴿وَيَقُولُونَ نُؤۡمِنُ بِبَعۡضٖ وَنَكۡفُرُ بِبَعۡضٖ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ١٥٠﴾ النساء: ١٥٠

الوسطية هي الطريق الأصعب؛ لأن الطريق الأسهل هو الميل لأحد الأطراف، والأصعب هو إيجاد المكان الذي يجتمع فيه خير كل الأطراف.

الوسطية هي قدر الله تعالى لهذه الأمة ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗا﴾ البقرة: ١٤٣

وشهادة الأمة على الناس تعني المسؤولية والعناية والهداية والريادة، ولا تعني الوصاية. وما جعل الله تعالى الأمة وسطًا إلا لتتحمل مسؤولية تبليغ منهج الله لكل الناس على نحو متساوٍ.

إن وسط الدائرة هو مركزها، وهو المكان الوحيد الذي يحتفظ بمسافة متساوية عن جميع نقاط محيط الدائرة، لتدور جميعها في فلكه، ولو اقترب من أي نقطة منها أو مال إليها لم يعد هو المركز، ولم يعد الوسط.

هكذا شاء الله للأمة المسلمة، أن تكون هي مركز العالم ووسطه، في شأنها وعقيدتها وفكرها وشرعها وعبادتها وجغرافيتها.

ولمّا ظلمت الأمة نفسها، وفرطت في وسطيّتها، ومالت شرقا وغربًا، تلتمس من هنا وهناك المنهاج، فقدت بذلك مركزيتها، وبعدما كانت الأمم تدور في فلكها أصبحت تدور هي في فلك الآخرين! وبعدما كانت متبوعة باتت تابعة!

الوسط هو العدل، والتطرف ظلم، سواء كان هذا التطرف تفريطًا أو إفراطًا.

إن من الانحراف عن الوسطية:

- التطرف الديني، وتعسير منهج الله على الناس، ليقعوا في حرجٍ من دينهم لا يجدون -وهم يواجهون تحديات الحياة- منه مهربا إلا بالتخلي عنه.

- التطرف الدنيوي، بالاستغراق التام في الأمور المعيشية، والانشغال بها على حساب القيام بحقوق الله وتكاليف الآخرة

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلۡأٓخِرَةِ نَزِدۡ لَهُۥ فِي حَرۡثِهِۦۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلدُّنۡيَا نُؤۡتِهِۦ مِنۡهَا وَمَا لَهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ٢٠﴾ **الشورى**: ٢٠

- التهور والرعونة، وعدم العمل وفق قانون الأسباب، فالشجاعة وسط بين التهور والجبن، تأخذ من التهور الإقدام، وتأخذ من الجبن الحذر والحيطة.

- الاعتماد على الأسباب، فالمؤمن يأخذ بالأسباب ولا يعتقد فيها الفلاح، إنما يعتقد أنه لا علاقة مباشرة بين الأسباب والنتائج، فبينهما إرادة الله وحكمته وتوفيقه، ومن ثم وجب التوكل عليه واللجوء إليه سبحانه.

- التفريط في الأصول والإفراط في الفروع.

- الانحياز إلى المجموع على حساب الفرد، كالشيوعية والاشتراكية، أو الانحياز إلى الفرد على حساب المجموع، كالرأسمالية.

- الاكتفاء بالموروث -الفكري والفقهي- وغلق باب الاجتهاد، وما الموروث إلا اجتهاد أصحابه، وما جمعت السنة وما تخلصت من كثير من الأكاذيب إلا باجتهاد الرواة.

إننا نفهم الوحي بالعقل، ونضبط العقل بالوحي، ووحي العقول ليس بديلا عن وحي الله، فالمؤمن يستعمل عقله ولا يعبده، وتعارض العقل السليم مع الوحي الصحيح محال؛ لأنهما من مصدر إلهي واحد، فالعقل خلق الله، والوحي أمر الله ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ **الأعراف**: ٥٤

قال الله لنبيه: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾﴾ النحل: ٤٤

((لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ)) ليتبعوا.. ((وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ)) ليجتهدوا.

- عزل السياسة عن الدين تفريط، وسحبها على كل الدين إفراط، فالسياسة جزء من الدين وليس كله.

وأخيرًا...

إذا اشتدت المحن وتراكمت، واختلطت الدروب وتشابهت، وأراد الناس الهداية إلى صراط الله المستقيم، فقط عليهم الاستمساك بمنهج الله ﴿فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾﴾ الزخرف: ٤٣

والقيام بما فيه من أوامر ونواهي ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا۟ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾ وَإِذًا لَّءَاتَيْنَٰهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيْنَٰهُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٦٨﴾﴾ النساء: ٦٦ - ٦٨

لا يتوانى أعداء الله عن الطعن في منهج الله وتحريفه ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا۟ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾﴾ البقرة: ٧٥

وفتنة الأمة عنه ﴿وَإِن كَادُوا۟ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ ۖ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾﴾ الإسراء: ٧٣ - ٧٥

وتخويف الناس منه ﴿وَقَالُوٓا۟ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ﴾ القصص: ٥٧

بل ومحوه من الوجود إن استطاعوا ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾﴾ التوبة: ٣٢

ولا يتركون منازلة الأمة عليه

﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟﴾ البقرة: ٢١٧

من أجل ذلك أمرنا الله باتباع منهجه، ونهانا عن اتباع أهوائهم

﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۖ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩﴾ هَٰذَا بَصَآئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٢٠﴾﴾ الجاثية: ١٨ - ٢٠

وبعدم الاستسلام لهم في صدهم عن منهج الله

﴿وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ﴾ القصص: ٨٧

وحذرنا سبحانه من تبديل المنهج، وتوعد من يفعل ذلك بالعقاب الشديد

﴿سَلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ كَمْ ءَاتَيْنَٰهُم مِّنْ ءَايَةٍۭ بَيِّنَةٍ ۗ وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢١١﴾﴾ البقرة: ٢١١

الإيمـــان

هو العنصر الثاني من عناصر الصراط المستقيم، وهو قلبه وجوهره، ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾ آل عمران: ١٠١ فهو الذي يربط عناصره ويشدها ببعضها، وبدونه تنفرط ويذهب كل عنصر منه إلى جهة مختلفة، فبينما يسير المنهج إلى وجهته، بدون الإيمان، يسلك المسلم طريقًا آخر، ويظل الواقع بعيدًا عنهما.

الإيمان هو الاعتصام بالله ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُوا۟ دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٤٦﴾﴾ النساء: ١٤٦

كلما زاد اعتصام الإنسان بربه كلما زاد إيمانه، حتى إذا بلغ درجة الحب، بلغ الإيمان أشُدّه، وكلما ضعف اعتصام الإنسان بربه كلما ضعف إيمانه، حتى إذا انحط إلى النسيان، انتفى الإيمان.

الاعتصام بالله يكون بالعقل والقلب معًا، فهو يبدأ من العقل ليستقر في القلب، ويستمر هكذا.

الاعتصام بالله هو انشغالٌ بالعقل وارتباطٌ بالقلب.

إن العقل طريق القلب، والقلب مستقَر ما ينشغل به العقل، وميل العاطفة إلى شيء ما ينشأ عن انشغال الفكر به.

لا يُتصور علاقة حقيقية مع من لا ينشغل به البال، أو لا يجول به الخاطر، إلا مرورًا عابرًا أو ورودًا خاطفًا، ولا يُتصور أن يتعلق القلب إلا بمن انشغل به العقل حرصًا واهتمامًا.

لذلك فإن أولى خطوات ارتباط الإنسان بربه، أن ينشغل به عقله، وهو أول الإيمان.

إن حرص الإنسان على أن يرتبط ويعتصم بالله، يجعل عقله دائم الانشغال به، دائم التفكير في إرادته وما تحمله من قُدرة، وفي قَدره وما يحمله من حكمة، وفي كونه وما به من دقة، وفي تصريفه للأمور وما به من عبرة، وفي سننه وما بها من غلبة، وفي منهجه وما يحمله من هداية.

وجود الإنسان من الله ﴿هَلۡ أَتَىٰ عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ حِينٞ مِّنَ ٱلدَّهۡرِ لَمۡ يَكُن شَيۡـٔٗا مَّذۡكُورًا ۝١ إِنَّا خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن نُّطۡفَةٍ أَمۡشَاجٖ نَّبۡتَلِيهِ فَجَعَلۡنَٰهُ سَمِيعَۢا بَصِيرًا ۝٢﴾

الإنسان: ١ - ٢

وروحه من روح الله ﴿ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۚ قَلِيلٗا مَّا تَشۡكُرُونَ ۝٩﴾ **السجدة**: ٩

واستمرار حياته من أمر الله ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٞ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ﴾ **الرعد**: ١١

فأي شيء يستحق أن ينشغل به عقله إن لم ينشغل بالله؟!

إنّ كل ما يصرف عقل الإنسان عن الله يُضعف ارتباطه به سبحانه، ومن ثم يضعف إيمانه، حتى إذا تم الانشغال، انفك الارتباط وضاع الإيمان.

ومثله تعطيل العقول، فلا تعمل ولا تفكر، وإنما تنساق وتقلد، هو من أكبر نواقض الإيمان.

شُرعت الصلاة لتتعود العقول دوام الانشغال بالله، فحين يقف الإنسان بين يدي ربه، لا ينشغل عقله إلا به سبحانه، يخرج من صلاته وعلاقته بربه أقوى، واعتصامه به أمتن.

بل وأي علاقة أقوى من هذه التي يتجدد عهدها خمس مرات -على الأقل- يوميًا؟!

أما الذي يشغل عقله في صلاته بغير الله، لا تضيف له صلاته رصيدًا إيمانيًا يدعم علاقته بربه، ويقول الله تعالى عنهم: ﴿ فَوَيۡلٞ لِّلۡمُصَلِّينَ ٤ ٱلَّذِينَ هُمۡ عَن صَلَاتِهِمۡ سَاهُونَ ٥﴾ الماعون:٤-٥

أي ساهون عن وظيفتها في دعم العلاقة مع الله، سهت عقولهم فانصرفت قلوبهم وتعلقت بغير الله ﴿ ٱلَّذِينَ هُمۡ يُرَآءُونَ ٦﴾ الماعون:٦

ولأن الله ليس كمثله شيء، فإن علاقة الإنسان بربه كذلك ليست كمثلها علاقة، فهي علاقة شديدة التفرد والخصوصية والتميز، لا تقبل الوسطاء ولا ينفع معها التقليد.

إن مؤلفات العلماء والزهاد، ونصائح الأئمة والصالحين، تصح أن تكون إرشادات وتوجيهات، ولا تصح أن تكون نماذج أو قوالب، فعلاقة الإنسان بربه أسمى من أن تُبنى على الوساطة أو التقليد.

الارتباط بالله لا يحتاج من الإنسان قدرات أكثر من التي وهبها الله له، ولا وقتًا أطول من الذي منحه الله إياه ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا﴾ الطلاق: ٧، ولا مكانًا معيّنًا، ولا زمانًا معيّنًا، ولا كلامًا معيّنًا.

كل ما يحتاجه الإنسان كي يرتبط بربه هو معرفة حقيقية به جلّ وعلا، معرفة تنبثق عنها كل معارف الحياة، والشعور بوجوده إلى أن يتلاشى -أو يكاد- معه الشعور بوجود غيره، والإحساس بإرادته وفعله إلى الدرجة التي يكاد ينعدم معها الإحساس بإرادة وفعل غيره.

ما ابتليت الأمة المسلمة بشيء أشد من عزل الإيمان الصحيح عن حياتها، بل وعن دينها، حين أخطأوا فهمه، واحتاروا في تعريفه، وابتعدوا عن سبيل تحقيقه!

نعم انعزل الإيمان عن الحياة، حتى أصبح المسلمون مشغولين عن الله، وعن أنفسهم، وعن غاية وجودهم، ووظيفتهم في الحياة ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾ الحشر: ١٩

وانعزل الإيمان عن الدين في نفوسهم، ففهموا الدين مجموعة ضوابط وقواعد، يمكن أن تُوضع في أي إطار تشريعي آخر، أو صور جمالية، أو معاني إنسانية، أو قيم حضارية، لا يختلف عليها مؤمن ولا كافر، فكل الأديان والتصورات يمكن أن تدعو إليها.

كل ما سبق جزء مهم من الدين، بيد أن الجزء الأهم منه هو الإيمان.

الدين هو الإيمان -كما الحج عرفة- لأن الدين هو الخضوع لله، ولا خضوع حقيقياً إلا بالإيمان، والذي بدونه يعبد الإنسان ربه على حرف ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنۡ أَصَابَتۡهُ فِتۡنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةَۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ ١١﴾ الحج: ١١

فلا استقرار للأخلاق في النفوس، ولا رسوخ للقيم في المجتمعات، إلا بالإيمان.

الإيمان حصن الإسلام، والإسلام منزوع الإيمان بلا حصن، يمكن اختراقه والاستيلاء عليه، واختزاله داخل أي منهج آخر، أو تشكيله ليناسب أي تصور آخر.

الإسلام منزوع الإيمان، عبارة عن عبادات شكلية، وطقوس موسمية، وشعائر ميتة، لا حياة فيها ولا نفع!

الإسلام منزوع الإيمان، منزوع التصور الصحيح، والفكر السليم، والعاطفة الصادقة، والطاقة الراشدة، التي ساد بها المسلمون الدنيا.

لا يتمنى أعداء الإسلام منه أكثر من ذلك، ولا مشكلة لديهم في قبول الإسلام منزوع الإيمان الصحيح، والتعايش معه، بل وتقديمه ليكون هو النموذج الأمثل للإسلام، ليخدعوا به العامة.

بنظرية تفريغ الأوعية من مضمونها، اخترعوا إيمانًا جديدًا دخيلا، يمثل حالة لقيطة، مجهولة النسب والهوية، مطلقة في الفراغ بلا أصل ولا حركة ولا غاية، ربما يشعر صاحبه معه بصفاء المشاعر، ونشوة إلى الخير، وإحجام عن الشر، تشبع حاجته الروحية، ولو بالزيف والتدليس.

إنه إيمان يخدّر العواطف، ويسكّن الهمم، ويخمد الطاقات، ويعطل العقول، ويشلّ التفكير، تائه في ظلمات الأسرار، وغارق في لجاج الألغاز.

ربما طال الأمد على كثير من أبناء الصحوة الإسلامية، حتى نسوا الحقيقة الإيمانية للدين، وظنوا أنفسهم مصلحين يدعون إلى مكارم الأخلاق، أو سياسيين مهمتهم الحكم، أو خيريين مهمتهم البر، أو ثوارًا يثورون على الظلم، أو جهاديين يحملون السلاح لمحاربة الأعداء، وكل ذلك يفعله المؤمن والكافر.

إن حقيقة هذا الدين، وحقيقة الانتفاع به -حصرًا- في الإيمان، ولن تؤتي مهام الإصلاح والسياسة والثورة والبر والجهاد ثمارها الطيبة المرجوة، إلا على هذا الأساس المتين من الإيمان القوي بالله تعالى، وعلى غير هذا الأساس تظل الجهود تُبدد، والأعمار تضيع، والأموال تُهدر، وتظل الأرض غابة البقاء فيها للأقوى لا للأصلح.

في التصور الإسلامي، العلاقة بين الأسباب والنتائج ليست مباشرة، وليست آلية ديناميكية، فبينهما إرادة الله تعالى، فلا قيمة حقيقية للأسباب ما لم ترتبط بالله، كما أنه لا صحة لإيمانٍ ينكر الأسباب.

إن الأهم من السعي، هو أن يكون على الإيماني الصحيح، كي يبلغ غايته، ويحقق مراده ﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾﴾ الإسراء: ١٩

مشكورًا في الدنيا ببلوغ غايته، وفي الآخرة بالجنة.

الإيمان هو شرط السعادة في الدنيا قبل الآخرة ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾ النحل: ٩٧

وشرط النصر.. ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾﴾ الروم: ٤٧

والعزة.. ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ المنافقون: ٨

والنجاة.. ﴿كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾ يونس: ١٠٣

والولاية.. ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ محمد: ١١

والمعية.. ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٩﴾﴾ الأنفال: ١٩

والثبات.. ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ إبراهيم: ٢٧

والدفاع.. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ الحج: ٣٨

والتأييد.. ﴿فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُواْ ظَٰهِرِينَ ﴿١٤﴾﴾ الصف: ١٤

والهداية.. ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ﴾ يونس: ٩

إن الوعي بحقيقة الإيمان وتضمين هذه الحقيقة لتكون أساس كل الأعمال، وسياق كل التصرفات، هو شرط الفلاح والنجاح ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾﴾ المؤمنون: ١

إنّ مرحلة النضج والرشد التي يجب أن تلي مرحلة الصحوة، لن تتأتى إلا بالفهم الإيماني الصحيح للدين، لن تتأتى إلا بالإيمان.

الإيمان هو الذي يربط الإنسان بمنهج الله، فإذا ضعف الإيمان أو غاب، ضعفت علاقته بالمنهج وغابت.

الإيمان هو سبيل الانتفاع الحقيقي بمنهج الله، وحده فهم المنهج لا يعني بالضرورة الانتفاع به، فما أكثر الذين فهموا منهج الله، ثم لم يؤدوا حقه، ولم يعملوا به، بل وإنّ منهم من ناصبوه العداء! وما ذلك إلا لأنهم فقدوا عنصر الإيمان ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾﴾ الإسراء: ٨٢

الإيمان هو الذي ينقل المنهج من مجرد كلمات ومعاني، إلى واقع في حياة الناس، ومن مجرد أطر ومحددات، إلى طاقة فكرية وعاطفية هائلة.

الإيمان بالله ليس مُطلقا هكذا في الفراغ، بلا مُنطلق ينطلق منه، ولا وجهة يقصدها، ولا حركة له محسوبة، حتمًا ليس كذلك.
فللإيمان بالله مُنطلق ثابت، وغاية محددة، وحركة تصنع منظومته.

مُنطلق الإيمان:

هي جذور فطرية وعقلية عميقة وقديمة داخل الإنسان، وأصول عقدية ثابتة وراسخة.

لم يأت الأنبياء ليدعوا الناس إلى شيء جديد غريب عليهم، وإنما جاءوا ليذكّروهم بشيء قديم لديهم، وأصيل في فطرتهم، يذكروهم بالإيمان بوحدانية الله،وهذه هي مهمة النبي:

﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾﴾ **الغاشية: ٢١**

يذكّرون الناس بالعهد القديم الذي أخذه الله تعالى عليهم، عهد الإيمان به ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ ۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾﴾ **الأعراف: ١٧٢ - ١٧٣**

إن هذا العهد الإلهي الأزلي لم يتركه الله تعالى عرضة للنسيان، بل جعله أقوى من النسيان، جعله فطرة الإنسان التي عليها فطره ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ **الروم: ٣٠**

فهو جزء أصيل من تكوينه وخلقته.

وكيف لا يكون الإيمان بالله فطرة الإنسان، وروحه أصلا من روح الله؟ ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى﴾ **الحجر: ٢٩**

إن كل ما على الإنسان فعله كي يرتبط ويعتصم بربه، أن يصلح فطرته من الفساد، ويطهرها مما طرأ عليها من الدخائل والدسائس، دخائل الهوى ودسائس الشيطان، ليجد الإيمان بالله هو الأكثر انسجامًا مع سجيته البشرية وطبيعته الإنسانية.

والذين يصرّون على إخراس فطرتهم، فِرارًا من صوتها الذي يدعوهم إلى الحق ليل نهار، وينغّص عليهم مُتع الأهواء، إنما يصرّون على الحنث بالعهد الإلهي، ولا أعظم منه حنثا ﴿وَكَانُواْ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلْحِنثِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٤٦﴾﴾ الواقعة: ٤٦

الإيمان بالله لا يعترف بالأسرار التي تتجاوز العقل، ولا بالألغاز التي تحيّره، ولا يؤسس وجوده على جملة من المشاعر العاطفية المجردة من الحقائق المعرفية والبراهين المنطقية.

الإيمان بالله عقيدة مبنية على الاستدلال العقلي، إلى الحد الذي لم يجد معه عقل المؤمن مهربًا من التسليم التام والخضوع الكامل لله جل وعلا ﴿أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ إبراهيم: ١٠

أقام القرآنُ الإيمانَ على الحُجج العقلية، والبراهين المنطقية، وهو يرد على مخالفيه بـ ﴿نَبِّـُٔونِي بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٤٣﴾﴾ الأنعام: ١٤٣

و.. ﴿قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ ۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾﴾ الأنعام: ١٤٨

و.. ﴿قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١١١﴾﴾ البقرة: ١١١

و.. ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَا﴾ الأنعام: ١٤٤

و..﴿ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾

الأحقاف:٤

و..﴿قُلْ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٩﴾﴾ القصص: ٤٩، وغيرها الكثير.

إن للإيمان بالله المنطقية الأكبر على الإطلاق، وكل التصورات المنطقية الأخرى فرع منها ومترتبة عليها.

لم نسمع أنّ أحدًا طلب دليلا على منطقية المعادلة (١+١=٢)، ولكن سمعنا ورأينا من يطلب أدلة على الإيمان بالله تعالى، وهو الأكبر والأعظم منطقية.

إن الاعتراف بمنطقية هذه المعادلة الجبرية لا يمس الأهواء بشيء، بيد أن الاعتراف بمنطقية الإيمان بالله تعالى وبما يترتب على هذا الاعتراف من تبيعات، يحول دون إنفاذ الأهواء وإطلاق الشهوات، فتقر عقول الجاحدين الإيمان منطقًا، ويرفضون الاعتراف به جحودًا ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ النمل: ١٤

أيضًا للإيمان أصول وأركان عقدية ثابتة ينطلق منها...

فكما أن للإسلام أركانًا تعبدية خمسة تمثل الحد الأدنى للخضوع العملي لله تعالى، كذلك للإيمان أركان عقدية ستة تمثل الحد الأدنى للخضوع العقلي والوجداني له سبحانه، وهي: الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره.

لم يُقِم بناء الإسلام من اكتفى برفع قواعده، كذلك لم يُشيّد بناء الإيمان من اكتفى بأركانه المعرفية.

حركة الإيمان:

الإيمان في النفوس كالماء الجاري في النهر، إذا سكن أسِن، وإذا استمر في الجريان طاب وتجدد، وانتفع به الناس.

ينطلق الإيمان من معينه الفطري والعقدي الصافي، ويتحرك، نحو غايته، إلى صياغة الإنسان، وإعداده وتأهيله، والإيمان عديم الحركة آسن، لا غاية له، ولا نفع منه.

ما أحوج الأمة اليوم لإعادة تحريك الإيمان الخامل داخل النفوس، ليهز كيانها بالحياة، كما يهز ماء السماء الأرض الهامدة، فتنبت ما ينفع الناس ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۝٥﴾ الحج: ٥

إن ما يدفع ماء النهر إلى الحركة هي روافده، كذلك الإيمان، روافده هي التي تحركه، فإذا انقطعت عنه سكن وفسد.
روافد الإيمان هي شعبه التي تغذيه وتحركه وتجدده، وبها يزيد وينقص، وهي كما قال النبي ﷺ بضع وسبعون شعبة: أعلاها لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان.

ذكر رسول الله شعب الإيمان في الحديث على النحو التالي:

- أن لها أعلى وأدنى، أي أنها مختلفة المراتب والدرجات، وليست على مستوى واحد.
- ذكر أعلاها وأدناها، وذكر واحدة بينهما، ولم يذكر الباقي، ليتركها لاجتهادنا، نستنبطها ونرتبها حسب ما يقتضيه الواقع، وتحتمه أولويات الزمان والمكان.
- ذكر أن أعلى شعب الإيمان على الإطلاق التوحيد، وهو عمل فردي قلبي، يقوم به الإنسان بقلبه.
- حسب مقتضى الواقع الحالي، نستطيع أن نرتب بعد التوحيد: الدعوة ثم الجهاد ثم الشورى ثم الإحسان.
- وذكر أدناها، إماطة الأذى عن الطريق، وهو كل عمل لا يضيف نفعًا، بقدر ما يدفع ضررًا.
- إماطة الأذى عمل مجتمعي، ينفع المجتمع بشكل مباشر، ويقوم به الإنسان بجوارحه.
- وعليه فإن شُعَب الإيمان يمكن أن تكون أعمال قلوب أو أعمال جوارح، وأعمالا فردية أو مجتمعية.

للإيمان داخل النفوس حركة يصنع بها الإنسان، وداخل المجتمع حركة يصنع بهما منظومته المجتمعية.

كيف نحقق الإيمان؟!

يمكن تحقيق الإيمان من خلال مرحلتين، الأولى إنشاء علاقة متينة مع الله تعالى، والثانية تخليص هذه العلاقة الربانية مما قد يشوبها أو يعكّر صفوها، بتحقيق التوحيد الخالص لله تعالى.

الإيمان علاقة ارتباط بالله، ولكي نحقق هذا الارتباط لا بُد من معرفة الله معرفة يقينية.
لمعرفة الله مصدران: هما القرآن والكون، وللارتباط بالله وسيلتان: هما التعلم والعبادة، ولا يكتمل الإيمان إلا باكتمال مصادره وتمام وسائله.
الكون دليل الإنسان إلى الله، ليس فقط بالنظر إلى اتساعه وعظمته ودقته واتزانه، وإنما -والأهم من ذلك- بتعلم علومه التي تصل بالإنسان إلى درجات من اليقين ربما لا تصل به إليها غيرها.
إن العلاقة بين القرآن والكون علاقة وطيدة لا انفصام لها، فلا تكاد تخلو سورة قرآنية من مشاهد كونية تثبت وحدانية الله تعالى وقدرته وعظمته، وأعظم الاكتشافات الكونية كانت شهادة حق على أن القرآن والكون هما من مصدر إلهي واحد.

إن الذي لا يتعلم القرآن، ولا ينظر في الكون والطبيعة نظرة بحث واعتبار، لم يؤمن الإيمان الصحيح.

الإيمان الأول..

هو الإيمان الذي صنع النخبة الأولى من الصحابة الكرام، الإيمان السهل البسيط، البعيد عن التعقيدات والتقعيدات والحواشي والإضافات والتنظيرات.

الإيمان المُستقى مباشرة من نبعه الرائق؛ وحي الله.

الإيمان المبرأ من الخلافات الكلامية، والإضافات الفلسفية، والمؤلفات التنظيرية، التي غيرت طبيعته، وطمست معالمه، وابتعدت به عن مساره، وحيرته على العقول، وصعّبته على النفوس.
إنه الإيمان الفطري المبرأ من التدخل البشري.
الإيمان الذي فهمه المسلمون الأوائل علاقة ارتباط مباشرة مع الله تعالى، بلا تدخلات خارجية، ولا وسيط ولا شفيع.
علاقة أساسها فهم القرآن الكريم، والتعلق بتعاليمه وإرشاداته، والإعجاب بمعانيه وإعجازاته.

لقد تلقوا الإيمان، تلقي الذي اهتدى -أخيرًا- إلى الحقيقة الكبرى بعد طول بحث وانتظار، فتشبثوا به، تشبث الذي حاز الجائزة العظمى بعد أن كاد لا يدركها، وفروا إليه، فرارهم من النار، التي أدركوا أنهم كانوا على شفا حفرة منها.

ولقد امتلكوا من الإنصاف والصدق مع النفس ما جعلهم يقدّرون حقيقة الإيمان حق قدرها، ويؤدون لنعمة الهداية جزيل شكرها.هكذا فهم المسلمون الأوائل الإيمان، وهكذا تلقوه، وهكذا تلحوا به سهلا بسيطا، وهكذا صنعهم فكرًا ووجدانًا، وهكذا فتحوا به الدنيا وسادوا به العالم.

القـــــرآن

الإيمان الحقيقي هو المبني على المعرفة الصحيحة اليقينية بالله تعالى، ولا سبيل لهذه المعرفة إلا القرآن، فهو كلام الله يعرّف به سبحانه نفسه لعباده بنفسه، ولا معرفة أبين ولا أوثق من هذه.

إن الذي لم ينشئ علاقة مع القرآن لم ينشئ علاقة مع الله، وإن الذي لم يعتصم بالقرآن لم يعتصم بالله، وإن الذي يبحث عن الله بعيدًا عن القرآن موهوم.
كتاب الله هو النبي الذي ما زال يعيش بيننا، والذي ما زال يبلّغنا عن الله وحيه، فكل من بلغه شيء من القرآن فكأنما رأى النبي وسمع منه ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾ الأنعام: ١٩

لقد انحرف كثير من أبناء الصحوة الإسلامية إلى علاقة شديدة السطحية مع القرآن، أفقدتهم الارتباط الحقيقي به، وأفقدتهم نفعه وهديه، وفقدوا معه الإيمان الصحيح.
بعضهم توقف عند احتراف نطقه وترتيله ورسمه وشكله، بعلوم التجويد ومخارج الحروف، وأغفلوا أن الغاية الأساسية من إنزال القرآن هي تدبره وفهمه ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾﴾ ص: ٢٩

وأن القراءة الصحيحة طريق الفهم الصحيح المطلوب ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾﴾ القمر: ١٧

وأن الآيات التي تُقرأ بطريقة أفضل، وبترتيل أجمل، هي الأقرب إلى العقول، والأسهل على الأفهام.

إنّ وِرد التدبر والفهم أهم وأولى من وِرد القراءة، وإن فهم آية واحدة من كتاب الله أفضل للمسلم وللأمة من قراءة القرآن كله في غيبة عن العقل والقلب.

وتاه آخرون في كتب التفاسير التي لا حصر لأسمائها ولا لأعداد صفحاتها، إلى الدرجة التي انشغلوا فيها بكلام المفسرين عن كلام الله، وتعلقوا بأقوالهم عن قول الله، وحصروا مراد الله في حدود ما كتبوه، فضيّقوا الرحمة، وعطّلوا المعجزة، وجمّدوا العطاء على أنفسهم، وقد قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾﴾ لقمان: ٢٧

إن علاقة الإنسان بالقرآن علاقة شخصية، وارتباطه به لا بُد أن يكون ارتباطا شخصيًا مباشرًا، بغير وسيط.

لقد فهم الصحابة الكرام القرآن أكثر من كونه نصًا مقدسًا، فهموه روحًا تُحيي الجسد إذا تلبسته

﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ الشورى: ٥٢

فأحياهم الله به ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ **الأنعام**: ١٢٢

وما أحوجنا وأحوج الأمة لهذه الحياة الآن.

يكفي الإنسان أن يتعرف على معاني الكلمات، ومناسبة الآيات، والسياق اللغوي والموضوعي، وأن يتعلم من مفسري العصر، دون أن يجعل خواطرهم حائلا دون خواطره، أو تدبرهم مانعًا لتدبره، هكذا يرتبط الإنسان بكتاب الله ارتباطًا مباشرًا، ويعيش في جوٍّ نقي من وحي الله.

على هذا النحو فقط، تتحقق علاقة الإنسان بالقرآن، ويتحقق له الإيمان.

إن العوار الذي أصاب الثقافة العامة للأمة، نتيجة طبيعية لانفصالها عن هدي القرآن، فالقرآن هو صانع الثقافة النافعة ﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا﴾ **الأنعام**: ١٠٤

إننا في أشد الحاجة إلى ثورة حقيقية للانقلاب على السطحية والنمطية التي أصابت الأمة في تعاملها مع القرآن.

كانت وما زالت أكبر وأعظم نقطة قوة امتلكتها الأمة هي آيات الله ﴿بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٣٥﴾﴾ **القصص**: ٣٥

ولا على الأرض أحد يمتلك وحيًا من الله، ينطق بالصواب المطلق، ويهدي إلى الحق المطلق، إلا الأمة المسلمة ﴿وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلۡحَقَّ وَهُوَ يَهۡدِي ٱلسَّبِيلَ ۝٤﴾ الأحزاب: ٤

ولقد أدرك أعداء الأمة هذه الحقيقة منذ لحظتها الأولى، وأيقنوا أنما غلبتهم تكمن في اللغو في القرآن ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَغۡلِبُونَ ۝٢٦﴾ فصلت: ٢٦

إن خصوصية هذه الأمة، وخصوصية حضارتها نابعة -حصرًا- من هدي القرآن

﴿لَقَدۡ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ كِتَٰبٗا فِيهِ ذِكۡرُكُمۡۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ۝١٠﴾ الأنبياء: ١٠

ولما حادت الأمة عن هديه كانت النتيجة الطبيعية أن تسقط دولتها ويزول سلطانها، ولا عجب وقد قال الله عن الذين ينأون بأنفسهم عن القرآن ﴿وَهُمۡ يَنۡهَوۡنَ عَنۡهُ وَيَنۡـَٔوۡنَ عَنۡهُۖ وَإِن يُهۡلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ وَمَا يَشۡعُرُونَ ۝٢٦﴾ الأنعام: ٢٦

إنّه لا سبيل للأمة المسلمة إذا أرادت الريادة والسيادة، إلا أن تجدد علاقتها بكتاب الله، فكريًا ونفسيًا، فتحيا على هديه، وتتنفس من روحه، وتنتظم على سطوره ﴿أَلَمۡ يَأۡنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخۡشَعَ قُلُوبُهُمۡ لِذِكۡرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلۡحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلُ فَطَالَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَمَدُ فَقَسَتۡ قُلُوبُهُمۡۖ وَكَثِيرٞ مِّنۡهُمۡ فَٰسِقُونَ ۝١٦﴾ الحديد: ١٦

العبـــادة

جعل الله العبادة للناس صلة به سبحانه، فالغاية من العبادة الارتباط بالله وبلوغ الإيمان.

العبادة لا تعني الطاعة، فربما يطيع الإنسان غيره مُكرهًا، أو طمعًا في مغنم، أو خشية من مغرم.

ولو كانت العبادة تعني مجرد الطاعة، لاستطعنا أن نقول إنه ما عبد الأصنام أحد؛ لأنه لم يطعها أحد، فالأصنام حجارة لا تنطق ولا تأمر ولا تنهى، والذين يعبدون الأصنام إنما يحلّون ويحرّمون بأنفسهم لأنفسهم ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ﴾ النحل: ١١٦

إنما كانت عبادتهم إياها أنهم كانوا يعتقدون فيها النفع والضر، فكانوا يعظّمونها، ويلجؤون إليها، ويدعونها.

فالعبادة هي الدعاء مع التعظيم، فمن عظّم غير الله، ولجأ إليه ودعاه أصبح عبدًا له ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ ۚ بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا ﴿٤٠﴾﴾ فاطر: ٤٠

عبادة الله هي تعظيمه وتنزيهه، خشيةً ورجاءً ﴿ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةً إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ٥٥ وَلَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَا وَٱدۡعُوهُ خَوۡفٗا وَطَمَعًاۚ إِنَّ رَحۡمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ مِّنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٥٦﴾ الأعراف: ٥٥ - ٥٦

فلا عجب أن يكون الدعاء هو مخ العبادة، وأن من لا يسأل الله يغضب عليه، كما قال رسول الله.

لم يعبد الله حقا من أطاعه بغير تعظيم وخشية، هكذا قال رسول الله للأعرابي حين وجده ينقر صلاته، قال له: "ارجع فصلِّ فإنك لم تُصَلّ"، فلو خشع القلب لخشعت الجوارح.

من أطاع الله بغير تعظيم وتنزيه، فقدت طاعته وظيفتها الإيمانية، وأصبحت مهام روتينية مملة، لا نفع فيها ولا طائل منها، لا تربطه بربه، ولا تدعم علاقته به سبحانه.

وإذا أطاع الإنسان ربه، طاعة تعظيم وتنزيه، وخشية ورجاء، تُحقق له طاعته الارتباط بالله تعالى، ومن ثم يتحقق له الإيمان ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخۡشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقۡهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ ٥٢﴾ النور: ٥٢

طاعة الله ليست مقصودة لذاتها، وليست جبرًا ولا قسرًا، إنما هي ثمرة التعظيم، وأمارة الخشية والرجاء، ووسيلة الارتباط بالله.

ذكر الله أكبر الطاعات ﴿ٱتْلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾﴾ العنكبوت: ٤٥

وأكبر هنا ليست تفضيل قيمة عن قيمة، وإنما تفضيل غاية عن وسيلة، فما شُرعت الصلاة إلا لذكر الله

﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ﴿١٤﴾﴾ طه: ١٤

الذكر ليس ما نطق به اللسان وحسب، وإنما هو ما انشغل به الفكر، وخفق به القلب ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾﴾ الأنفال: ٢

وإنما تطمئن قلوب الذين آمنوا -أي الذين انشغلت عقولهم وتعلقت قلوبهم بالله- بذكر الله ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾﴾ الرعد: ٢٨

الإكثار من ذكر الله، على هذا النحو الصحيح، يقوي علاقة الإنسان بالله، ومن ثم يقوي إيمانه، ويثبته أمام التحديات الكبرى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُوا۟ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾﴾ الأنفال: ٤٥

لهذا أمر الله موسى وهارون وهو يكلفهما بمواجهة أكبر طاغية جبار، ألا ينشغلا ولا يتوانيا عن ذكره سبحانه ﴿ٱذۡهَبۡ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكۡرِي ٤٢﴾ طه: ٤٢

أما ذكر الساهي عن الله، فهو مضيعة لوقته؛ لأنه لا أثر لذكره على قلبه، ولا قيمة إيمانية مضافة منه.

ذكر الله هداية المسلم إلى الإيمان ﴿وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡحَمِيدِ ٢٤﴾ الحج: ٢٤، ولا قول أطيب من ذكر الله.

وذكر الله يزكّي النفوس ويحقق الإيمان والفلاح ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ١٤ وَذَكَرَ ٱسۡمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ١٥﴾ الأعلى: ١٤ - ١٥

تحقيق التوحيد الخالص، لا إله إلا الله

التوحيد هو أكبر روافد الإيمان على الإطلاق، والذي لا يعوّضه غيره، فإذا انقطع عن القلب، جفّ منه الإيمان، ولو أمدّته كل الروافد الأخرى مجتمعة ما أغنت عنه، وما نفعت القلب، لذا فالتوحيد هو الإيمان.

التوحيد يعني إفراد الله بالطاعة والخضوع، بحيث تكون كل الطاعات فرعًا من طاعته، ومترتبة عليها، لا تخالفها ولا تخرج عن حدودها، وإلا أصبحت غاية في نفسها، وأصبحت شركًا، فلا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، ولا طاعة أحب ولا أولى من طاعة الله.

فطاعة الله شرط وإطار كل الطاعات، وليس أحق بالطاعة بعد الله تعالى من الوالدين، قال الله في طاعتهما ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ فَلَا تُطِعۡهُمَاۖ وَصَاحِبۡهُمَا فِي ٱلدُّنۡيَا مَعۡرُوفٗاۖ وَٱتَّبِعۡ سَبِيلَ مَنۡ أَنَابَ إِلَيَّۚ ثُمَّ إِلَيَّ مَرۡجِعُكُمۡ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ١٥﴾ لقمان: ١٥

كما أمرنا الله بطاعة أولي الأمر ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ﴾ النساء: ٥٩ ولكنه جعل حكم الله هو الفصل فيما اختلفنا فيه معهم ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ٥٩﴾ النساء: ٥٩

هكذا لتبقى طاعة الله هي الطاعة الوحيدة المطلقة والأصيلة، وغيرها من الطاعات نسبية ومتفرعة عنها.

التوحيد أغلى ما في الوجود، لأن الله يغفر كل شيء وأي شيء إلا أن يُشرك به ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفۡتَرَىٰٓ إِثۡمًا عَظِيمًا ٤٨﴾ النساء: ٤٨

التوحيد من الإنسان كالجذر من الشجرة، بدونه يصبح كالشجرة الخبيثة التي اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار، والناس بدون التوحيد كأوراق الأشجار المتطايرة في الهواء، تتلقفهم رياح الأفكار الضالة، وتهوي بهم عواصف التصورات المنحرفة

﴿وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخۡطَفُهُ ٱلطَّيۡرُ أَوۡ تَهۡوِي بِهِ ٱلرِّيحُ فِي مَكَانٖ سَحِيقٖ ٣١﴾ الحج: ٣١

التوحيد ليس علماً من علوم الدين، ولا ينبغي له ذلك، التوحيد هو الدين.

التوحيد الخالص، هو الذي خلص من شوائب الشرك والشك، ومن التشبيه والتجسيد والتعطيل والتمثيل، إذا خلص التوحيد، تحقق الإيمان السليم، وإذا شابه شيء، تعكر الإيمان.

يتحقق التوحيد الخالص بتحقيق منظومته الحياتية، التي يتحقق بها الإيمان الصحيح.

منظومة التوحيد

لا شك أن الله تعالى يريد للإنسان الخير واليسر والفلاح، ما لا يريده غيره سبحانه له، كيف لا وهو الذي خلقه بيده، وصوّره في أحسن صورة، وفي أحسن تقويم، ونفخ فيه من روحه، وأسجد له الملائكة، وحمله في البر والبحر ورزقه من الطيبات.

ما كان الله -بعد ذلك كله- ليترك الإنسان فريسة سهلة للأهواء وللشياطين، وإنما وضع له المنظومة التي تحفظه، إذا هو آوى إليها، واحتمى بحماها، لينجو بداخلها من تسلط الأهواء، ومن سهام الشياطين.

هي المنظومة الوحيدة التي ليست من صنع بشر، ولا مِلكًا لبشر، يمنّ بها على من يشاء أو يمنعها عمن يشاء، إنما هي تنزيل إلهي خالص، أنزلها رب الناس لكل الناس، تسع الناس جميعًا، وهم فيها سواء، والكرامة فيها فقط للتقوى.

الله وحده هو صاحب هذا الدين ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾ الزمر: ٣ وهو صاحب منظومته، فلا حجة على الإسلام، ولا حجة على الأمة، ولا حجة على الناس، غيره سبحانه، والرسول الذي أرسل، والكتاب الذي أنزل، وفقط.

إن تاريخ الأمة المسلمة كالصفحة البيضاء، لا يضرّها إذا شابتها بعض النقاط السوداء، وأيًّا ما كان، فإن أي خطأ أو انحراف في تاريخ الأمة العظيم، حجة على صاحبه، وليس حجة على دين الله، ولا على غيره ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٤﴾﴾ البقرة: ١٣٤

إنها منظومة القرآن، التي حفظها الله، وحفظ معالمها وأصولها وتعاليمها في القرآن، فمهما حاول أعداؤها إفناءها، ستبقى ما بقي كتاب الله.

كفانا الله حيرة وضعها، ومشقة حفظها، ويسّر علينا الاهتداء إليها، وجعل فطرتنا غير منسجمة إلا معها، ومهيئة لقبولها، وللعيش تحت ظلالها، وأمرنا بالتزامها، ووعد من التزمها بالنعيم الخالد، ومن شاقّها بالعذاب الأليم.

وأرسل الرسل، وأنزل الكتب، لينبّه الناس إليها، ويدلّهم عليها، فما بقيت عليه سبحانه من حجة، وما بقي للناس من عذر.

التوحيد ليس مجرد اعتقاد، إنما هو حقيقة الحياة ﴿هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ غافر: ٦٥،

وسر الوجود ﴿ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾﴾ الأنعام: ١٠٢

التوحيد حقيقة استمرار الكون

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ أَن تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنۡ أَمۡسَكَهُمَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا ٤١﴾ فاطر: ٤١

واستقراره واتزانه، ووحدة نظامه، وانسجام مكوناته، وتكاملها، وعدم تضاربها. ﴿لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلۡعَرۡشِ عَمَّا يَصِفُونَ ٢٢﴾ الأنبياء: ٢٢

التوحيد يعني أن هذا الكون يخلو من أي إرادة مطلقة غير إرادة الله ﴿وَهُوَ ٱلۡقَاهِرُ فَوۡقَ عِبَادِهِۦۚ وَهُوَ ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡخَبِيرُ ١٨﴾ الأنعام: ١٨

وأنه لا يحول دون إرادته شيء ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعۡجِزَهُۥ مِن شَيۡءٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمَا قَدِيرٗا ٤٤﴾ فاطر: ٤٤

وأن أمره سبحانه نافذ ﴿وَكَانَ أَمۡرُ ٱللَّهِ مَفۡعُولٗا ٤٧﴾ النساء: ٤٧

التوحيد يعني أن هذا الكون يخلو من أي سنن وقوانين ثابتة وقاهرة، غير التي وضعها الله وأجراها ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗاۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحۡوِيلًا ٤٣﴾ فاطر: ٤٣

وحدانية الله سبب وحدة النظم القرآني وتكامل آياته وتناسق موضوعاته ﴿وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا ٨٢﴾ النساء: ٨٢

إن من أجلّ معاني التوحيد أن تكون المنظومة الأصلح لحياة الناس واحدة، وحدها التي تحفظ لهم -بمختلف أديانهم وأعراقهم وانتماءاتهم- إنسانيتهم وحقوقهم، وتضمن لهم السعادة والعدالة ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ۝٥٠﴾ المائدة: ٥٠

إن لا إله إلا الله، تعني أنه لا منظومة هي الأصلح والأنفع للناس إلا التي وضعها الله.

معالم منظومة التوحيد ثابتة، ومبنية على الوحدة، فالحق فيها واحد، والغاية واحدة، والقضية واحدة، والمهمة واحدة، والمعركة واحدة، فلا حيرة فيها ولا شتات، وإنما هداية واجتماع.

معالم منظومة التوحيد

أولاً: وحدة الحق:

كل الحقائق في هذا الوجود تظل نسبية، تحتمل الخطأ بقدر ما تحتمل الصواب، ما لم ترتبط بالحقيقة الوحيدة المطلقة، التي لا تحتمل الخطأ، ويستحيل فيها الباطل: إنها الحق الإلهي.

هو الله، من أسمائه الحسنى الحق ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡحَقُّ﴾ المؤمنون:١١٦

وكل ما نسبه سبحانه لنفسه ﴿وَقُلِ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكُمۡ﴾ الكهف: ٢٩

خلقه الحق: ﴿مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ﴾ الروم: ٨

وقوله الحق: ﴿قَوۡلُهُ ٱلۡحَقُّ﴾ الأنعام: ٧٣

وقصصه الحق: ﴿إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۖ يَقُصُّ ٱلۡحَقَّ﴾ الأنعام: ٥٧

وهديه الحق: ﴿قُلۡ هَلۡ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلۡحَقِّۚ قُلِ ٱللَّهُ يَهۡدِي لِلۡحَقِّ﴾ يونس:٣٥

وقضاؤه الحق: ﴿وَٱللَّهُ يَقۡضِي بِٱلۡحَقِّۖ وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقۡضُونَ بِشَيۡءٍ﴾ غافر: ٢٠

ووعده الحق: ﴿أَلَآ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ يونس: ٥٥

ووعيده الحق: ﴿وَيَسۡتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَۖ قُلۡ إِي وَرَبِّيٓ إِنَّهُۥ لَحَقّٞۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ ٥٣﴾ يونس: ٥٣

ودعاؤه الحق: ﴿لَهُۥ دَعۡوَةُ ٱلۡحَقِّ﴾ الرعد: ١٤

ويفتح بالحق: ﴿قُلۡ يَجۡمَعُ بَيۡنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفۡتَحُ بَيۡنَنَا بِٱلۡحَقِّ وَهُوَ ٱلۡفَتَّاحُ ٱلۡعَلِيمُ ٢٦﴾ سبأ: ٢٦

ويقذف بالحق: ﴿قُلۡ إِنَّ رَبِّي يَقۡذِفُ بِٱلۡحَقِّ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ ٤٨﴾ سبأ: ٤٨

كتابه هو الحق: ﴿وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ هُوَ ٱلۡحَقُّ﴾ الرعد: ١ العزيز عن الباطل ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٞ ٤١ لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ تَنزِيلٞ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٖ ٤٢﴾ فصلت: ٤١ – ٤٢ ولا كتاب عزيز عن الباطل غيره.

ورسوله هو الحق: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗاۖ وَلَا تُسۡـَٔلُ عَنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡجَحِيمِ ١١٩﴾ البقرة: ١١٩ ، المعصوم عن الهوى ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ ٣ إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ ٤﴾ النجم: ٣ – ٤ ولا بشر معصوم بعده.

إن اتباع الظن يقدح مروءة الإنسان، كما قال رسول الله ﷺ "فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه"، فلا يسع أولي الألباب، وأصحاب المروءة، إلا أن يتبعوا الحق الذي لا ظن فيه ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ٢﴾ البقرة: ٢

والصواب الذي لا خطأ فيه ﴿وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلۡحَقَّ وَهُوَ يَهۡدِي ٱلسَّبِيلَ﴾ الأحزاب: ٤

عُمر الإنسان هو أغلى ما يملك من رأس مال وأدوات، ولا يملك أغلى منه، إذ لا فرصة لاسترجاعه، إن هو ضيعه في طرق غير مضمونة النهايات، أو مسالك غير مأمونة العواقب، فلا يسع كل ذي عقل سليم، إلا أن يستثمر عمره على الحق الذي لا مظنة باطل فيه، فإنّ إهدار العُمر في غير الحق ظلمٌ للنفس

﴿أَوَلَمۡ نُعَمِّرۡكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُۖ فَذُوقُواْ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ٣٧﴾ فاطر: ٣٧

وحدة الحق

لكل إنسان ميزان، يميّز به الصواب من الخطأ، والخير من الشر، والأهم من المهم، يتشكل هذا الميزان داخل وجدانه عن جملة معتقداته وتصوراته وقناعاته.

إذا تقاربت معتقدات الناس وتصوراتهم، تقاربت موازينهم، تقاربوا وتعايشوا وتعاونوا، وإذا تباعدت، تباعدوا واختلفوا وتنازعوا.

من أجل ذلك لم يترك الله تعالى للناس تعيين الميزان الأصوب والأصح، لئلا تتعارض موازينهم بتعارض أهوائهم، فتفسد حياتهم، فأنزله سبحانه في كتابه ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ﴾ **الشورى**: ١٧

هو الميزان الأصلح الذي لا تستقيم حياة الناس إلا به ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ﴾ **الحديد**: ٢٥

وحدة الحق المطلق ضرورة وجودية لحياة الناس، تكمن في ضرورة وحدة هذا الميزان، وضرورة ثباته، وصلاحيته وملاءمته لكل الناس، في كل زمان ومكان.

إذا طرأ على الحق المطلق تغيير، اختل ميزانه، واختل معه نظام الحياة، وانهارت مقوماتها الأولية، وضلت البشرية.

وما ضل أحد، إلا حين أنكر الحق، وأنكر ميزانه الأصح، ووضع لنفسه موازين أخرى، تصيب أحيانا وتخطئ أحايين ﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ ۗ أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ ۖ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٥﴾﴾ **يونس: ٣٥**

إذا تعدد الحق المطلق، تعددت الموازين والمعايير، واختلفت وتناقضت، وتفرق على أساسها الناس، يتباغضون ويتنازعون ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾ **الأنعام: ١٥٣**

قد يظن ظانّ، أنّ كون الحق المطلق واحدًا غير متعدد، أن هذا يغلق باب الاجتهادات الإنسانية، أو يمنع التعددية الفكرية، أو يصنع من الناس قوالب نظامية أحادية، وهذا غير صحيح، بل العكس تمامًا، فوحدة الحق المطلق هي التي تصون حرية الاجتهاد الإنساني والفكري؛ لأن الاستبداد هو الذي عدّد الحق المطلق، بأن نسبه كل مستبد لنفسه ﴿يَٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا ۚ قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٢٩﴾﴾ **غافر: ٢٩**

عاشت الأمة المسلمة زمانًا تعدّد فيها الحق المطلق، واستبد به كل مستبد لنفسه، وكل طائفة لنفسها، وظنت أنها الوحيدة الناجية، وأن غيرها هالك، على الباطل المطلق!

فصنعوا من الرؤى البشرية، صكوكًا للحق المطلق، التي يحتكرها المستبدون، ويخدعون بها العامة، ليزجوا بهم في معارك تخدم مصالحهم، باسم الحق، الذي ينبغي أن يضحّي الناس بحياتهم من أجله!

فتفرقوا وتنازعوا، وضعفت صفوفهم، وذهبت ريحهم أمام أعدائهم، فذلوا وهلكوا جميعًا، إلا من رحم الله منهم، ولعلهم كانوا يقرؤون كل يوم أمر ربهم ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ وَٱصۡبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ٤٦﴾ الأنفال: ٤٦

إن من أجلّ معاني التوحيد، الإيمان بأن الحق المطلق هو لله تعالى وحده، وإنّ من أهم ثمرات هذا الإيمان، التوافق والائتلاف والوحدة والقوة والمنعة الداخلية.

والعكس بالعكس، فإن العقاب الطبيعي للشرك، الذي يعني نسبة الحق المطلق لغير الله، التفرق والتنازع والاقتتال، هكذا قال الله

﴿قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنۡهَا وَمِن كُلِّ كَرۡبٖ ثُمَّ أَنتُمۡ تُشۡرِكُونَ ٦٤ قُلۡ هُوَ ٱلۡقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبۡعَثَ عَلَيۡكُمۡ عَذَابٗا مِّن فَوۡقِكُمۡ أَوۡ مِن تَحۡتِ أَرۡجُلِكُمۡ أَوۡ يَلۡبِسَكُمۡ شِيَعٗا وَيُذِيقَ بَعۡضَكُم بَأۡسَ بَعۡضٍۗ ٱنظُرۡ كَيۡفَ نُصَرِّفُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَفۡقَهُونَ ٦٥﴾ الأنعام: ٦٤ - ٦٥

فإذا أشرك الإنسان بالله رأيه، وجعل منه الصواب المطلق، الذي لا يحتمل الخطأ، حمله ذلك على منازعة من لا يرى رؤيته، ولا يؤمن بصحة اجتهاده.

من أجل ذلك كانت الشورى من أهم شعب الإيمان، ومن أهم أمارات التوحيد، إذ هي إذعان من المتشاورين أنه لا أحد منهم يحتكر الصواب المطلق، وإلا ما احتاج للشورى، وأن سبيل الوصول للقرار الأصوب هو التشاور على كل الرؤى والاجتهادات، والاستعداد التام لقبول أي منها، أو مما يهديهم الله إليه.

ثم عاشت الأمة زمانًا آخر، غاب عنها هذا الحق المطلق، لمّا ألغت الهيمنة الليبرالية الغربية الحق الإلهي، وجعلت من كل التصورات، اجتهادات إنسانية متساوية، سواء في النسبية، جميعها وضع بشري، وليس منها تنزيل إلهي.

فكثرت وتزاحمت التصورات، وتساوت جميعها لدى الناس، ووارتهم عن الحق المبين، فما عادوا يميزون الصواب من الخطأ، لمّا غاب عنهم ميزان التمييز الصحيح، فضلوا وتاهوا.

﴿ كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۖ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ ﴾ **الأنعام**: ٧١

فبين هيمنة الاستبداد الذي عدد الحق المطلق، بأن نسبه كل مستبد لنفسه، وبين الهيمنة الليبرالية التي غيّبت الحق المطلق، وساوت بينه وبين الاجتهادات البشرية، فقدت الأمة طريقها الوسطي.

إذا أيقن الناس أن الحق المطلق هو واحد فقط، وأنه حصراً لله رب العالمين، وأنه ليس وضعًا بشريًا، ولا إفرازًا إنسانيًا، وأنه هو الأحق بالاتباع ﴿ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۚ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ٣﴾ الأعراف: ٣

وأن ما دون ذلك، هي رؤى بشرية، واجتهادات إنسانية، تحتمل الخطأ بقدر ما تحتمل الصواب، وإذا صحّت ففي زمانها ومكانها، لهُدوا جميعًا إلى الصراط القويم، وكان اختلافهم تنوعًا وإضافة، وليس تنازعًا وشقاقًا.

إذا أيقن الناس أنّ الحق المطلق واحد من الله تعالى، لاطمأنت نفوسهم، وسكنت خواطرهم، وذهب عنهم قلق الانحراف، وخشية الزيغ، حين يتبعون الوحي الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

إن هذه الأمة الموحدة بالله، هي أمة واحدة ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُونِ ٩٢﴾ الأنبياء: ٩٢

إنّ هذه الأمة المتعددة الأعراق واللغات والعادات والمصالح، إن لم تجتمع على الله ربها ﴿وَمَا ٱخۡتَلَفۡتُمۡ فِيهِ مِن شَيۡءٖ فَحُكۡمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّي عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ ١٠﴾ **الشورى**: ١٠ ، وتعتصم بحبله وحده ﴿وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْ﴾ **آل عمران**:١٠٣

فلن تجتمع على غيره، وتفرقها الحِبال التي لا نهاية لعددها.

استدعاء الحق

إنّ المسلمين في غياب الحق مُصرَفون عن الحقيقة، إلى الأوهام والظنون، وعن معركتهم الأصيلة، إلى معارك أخرى بديلة، يصنعها لهم أعداؤهم، ليضلوهم، وليلبسوا عليهم دينهم، ويستنزفوا قوتهم، ويبدّدوا ثرواتهم فيما يضرهم ولا ينفعهم، ولا عجب فإنّ المصروف عن الحق أعمى ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩﴾﴾ الرعد: ١٩

إن الذي يعاني حالة العماء والتخبط هذه، حتمًا غير مؤهل لخوض أي معركة، أو الاشتباك في أي قضية.

لم يأمر الله تعالى النبي ولا المؤمنين الأوائل معه، بخوض أي معركة أو الاشتباك في أي قضية، من بداية نزول الوحي ولمدة ثلاث سنوات من الدعوة السرية، ذلك قبل أن يعوا الحق يقينا، ويستقر في نفوسهم إيمانا.

كان من أهم أهداف فترة سرّية الدعوة، هو استدعاء هذا الحق المبين لدى النخبة الأولى من المؤمنين، في جو مستقر، خالٍ من المناكفات والمنازعات، التي قد تعكّر صفاءه، وتشوب نقاءه، ليمتلكوا به الأدوات النفسية والفكرية التي تؤهلهم لخوض المعارك، والتي ما كانوا لينتصروا فيها لولا رسوخ هذا الحق لديهم، وتمكنه منهم.

بعد هذه الثلاث سنوات، وعلى هذا الحق وحده، أمر الله تعالى نبيه والمؤمنين أن يصدعوا بالحق، ويجهروا بالدعوة، ليبدؤوا أولى معاركهم ضد الباطل.

إن خوض المعارك قبل استدعاء الحق، وعيًا وإيمانًا، ليكون هو أساسها، ومعيار الصواب والخطأ فيها، والسلطان على تصرفات أصحابها، يجعلها متروكة للأسباب المادية وحدها، والانتصار فيها على قدر الطاقة البشرية، والبقاء فيها للأقوى لا للأصلح، فهي ليست معركة الحق التي تستحق التأييد الإلهي.

كما أنه يُفقد المعارك مبرّرها؛ لأن الله ما شرع الجهاد -بتعدد أنواعه- إلا دفاعًا عن الحق، ومن أجل تبليغه ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ۝٦﴾ التوبة: ٦

فالحق هو مبرر الجهاد، ولا جهاد إلا بالحق، هكذا هو شأن المنهج الإلهي كله ﴿وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ﴾ الإسراء: ١٠٥

فالمعارك بدون الحق، صراعات تشعلها الأهواء وتحركها المصالح، وفي هذا لا يكفي أن يكون الحق طرفًا في المعارك، بل لا بُد أن يكون هو الطرف الأصيل فيها، فلا معركة قبل استدعاء الحق، ولا معركة إلا بالحق.

ظهور الحق بداية المعركة

شاءت أقدار الله ألا يبدأ نبي الله موسى أولى معاركه مع فرعون قبل ظهور الحق، خالصًا لا شائبة فيه، أمام أعين الناس جميعًا، بمعجزة عظيمة

﴿فَوَقَعَ ٱلۡحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١١٨ فَغُلِبُواْ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُواْ صَٰغِرِينَ ١١٩ وَأُلۡقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ١٢٠﴾ **الأعراف**: ١١٨-١٢٠

لتتبرأ معركته من أي مبرر غير هذا الحق الذي سطع أمام الجميع.

ولا يظهر الحق خالصًا إلا ويزداد أعداؤه له تكذيبًا ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ مِنۡ عِندِنَا قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰذَا لَسِحۡرٞ مُّبِينٞ ٧٦ قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمۡۖ أَسِحۡرٌ هَٰذَا وَلَا يُفۡلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ ٧٧﴾ **يونس**: ٧٦ - ٧٧

ويشتدون عليه كيدًا واضطهادًا ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلۡحَقِّ مِنۡ عِندِنَا قَالُواْ ٱقۡتُلُوٓاْ أَبۡنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ وَٱسۡتَحۡيُواْ نِسَآءَهُمۡۚ وَمَا كَيۡدُ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ ٢٥﴾ **غافر**: ٢٥

إنّ للحق سلطانًا فطريًا على الناس، فإذا ظهر جليًا مبرّأ من التشويه والتزييف، تعلقت به نفوسهم، تشبثت به قلوبهم، وقتها يكون الحق هو الطرف الأقوى، والرقم الأصعب، في معركتهم ضد الباطل.

ويكون صبرهم على الأذى ثباتًا على هذا الحق المبين، لا على غيره من الظنون والأوهام، أو المآرب والأغراض ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوۡمِ إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيۡهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسۡلِمِينَ ٨٤﴾ **يونس**: ٨٤

وقتها يمدّهم الله بجنده، ويؤيدهم بنصره، وتكون العاقبة لهم، وينتقم الله من عدوهم ﴿فَٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ فَأَغۡرَقۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡيَمِّ بِأَنَّهُمۡ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنۡهَا غَٰفِلِينَ ١٣٦ وَأَوۡرَثۡنَا ٱلۡقَوۡمَ ٱلَّذِينَ كَانُواْ يُسۡتَضۡعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلۡأَرۡضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَاۖ وَتَمَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلۡحُسۡنَىٰ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُواْۖ وَدَمَّرۡنَا مَا كَانَ يَصۡنَعُ فِرۡعَوۡنُ وَقَوۡمُهُۥ وَمَا كَانُواْ يَعۡرِشُونَ ١٣٧﴾ **الأعراف**: ١٣٦ - ١٣٧

إن الأهم من المعركة، هو أن تكون على الحق، والأهم من الصبر والثبات، هو أن يكونا على الحق، فخوض المعارك والصبر عليها والثبات فيها، فضائل ليست مقصودة لذاتها.

ظهور الحق نهاية الباطل

إن غياب الحق يطيل أمد الباطل؛ لأن الله لا يعاقب حتى يقيم الحجة على الناس بالحق ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ﴾ التوبة: ١١٥

وما كان الله ليظلم أحد ﴿ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ ﴿١٣١﴾﴾ الأنعام: ١٣١

ظهور الحق نهاية تمتع أهل الباطل ﴿بَلْ مَتَّعْتُ هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿٢٩﴾﴾ الزخرف: ٢٩

ولا يعني ظهور الحق إلا زهوق الباطل ﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾﴾ الإسراء: ٨١

فالباطل لا يصمد أمام الحق طويلاً ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ الأنبياء: ١٨

فإذا طال أمد المعركة، وطالت هزيمة أهل الحق فيها، فلا شك أن الحق الذي معهم لم يعد خالصًا، وحتمًا خالطه الباطل، ومن ثم فقدوا التأييد الإلهي.

إنّ نور الحق الخفيف يبدد الظلام الكثيف، وإنّ صوت الواحد ينطق بالحق يزيل الله به أثر سنوات طويلة من الباطل، وكلما ظهر من الحق شيء توارى من الباطل مثله.

إن واجب الوقت الأهم هو استدعاء الحق، لتنبيه الغافل، ورد التائه، وهداية الشارد، وتصحيح المسار، واستدعاءً لمعية الله من جديد ﴿وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ ۖ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ المائدة: ١٢

كيف يمكن استدعاء الحق؟!

١- استدعاء الحق يكون بالوعي به يقينا، فالظنون لا تغني عن الحق شيئًا ﴿إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغۡنِي مِنَ ٱلۡحَقِّ شَيۡـٔٗا﴾ يونس: ٣٦

٢- ثم التحلي به إيمانًا، بأن يرتبط الإنسان بربه، وينشغل به عقله، ويتعلق به قلبه، فتستقيم معه سبحانه حياته ﴿وَمَن يَعۡتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدۡ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ١٠١﴾ آل عمران: ١٠١

كتاب الله هو الحق المبين ﴿وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ هُوَ ٱلۡحَقُّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ﴾ فاطر: ٣١

قال الله لأهل الكتاب ﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَسۡتُمۡ عَلَىٰ شَيۡءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡۗ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرٗا مِّنۡهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ طُغۡيَٰنٗا وَكُفۡرٗاۖ فَلَا تَأۡسَ عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٦٨﴾ المائدة: ٦٨

فكتب الشيخ محمد عبده: يا أهل القرآن لستم على شيء حتى تقيموا القرآن.

يا أهل الحق، لستم على شيء حتى تقيموا الحق وعيًا وإيمانًا، فلا تنجرّوا إلى معارك وهميّة، تضحون فيها بالغالي والنفيس وأنتم على غير شيء، فتذهب تضحياتكم سدى، وأعمالكم هباء منثورًا.

٣- ثم الصدع بالحق، والدعوة إليه، ليظهر للناس كافة، واضحًا بغير تشويه ولا تزييف ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٨﴾﴾ **يونس**: ١٠٨

وحدة الغاية:

إن هذا الحق المطلق هو الغاية الوحيدة المطلقة، أي أنها الوحيدة المقصودة لذاتها، وليست وسيلة لغيرها، فهي منتهى كل الغايات، والتطلعات، والأهداف، والأعمال.

هو الله تعالى، الغاية المطلقة، وكل الغايات الأخرى نسبية، ووسيلة لها.

الله غايتنا، وإرضاؤه قضيتنا، وغيرها من القضايا فرع منها، ووسيلة لتحقيقها، غير مستقلة بذاتها، وإلا أصبحت غاية في نفسها، وأصبحت شركًا ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾﴾ التوبة: ٢٤

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ الذاريات: ٥٦

طلبًا لرضاه، بأسلوب النفي والاستثناء، للتأكيد على وحدة القضية التي من أجلها خلقهم الله.

إن إرضاء الله غاية لا يدركها الإنسان حتى يموت ﴿وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ ٩٩﴾ الحجر: ٩٩

فمن كان الله غايته، لا يكلّ ولا يملّ، ولا يقعد ولا يعجز، ومهما تراكمت عليه المحن، وتآمرت عليه الأمم، لا ينهزم ولا يستسلم، حتى يبلغ غايته، أو يتوفاه الله على سبيلها، وقتها يقول فزت ورب الكعبة. إنه لا ييأس إلا من فاتته غايته، ولا يقعد إلا من انتهت قضيته، والله تعالى غاية لا تفوت، ورضاؤه قضية لا تنتهي.

إن الصحابة الكرام الذين تركوا الميدان يوم أُحد، وقعدوا واستسلموا، حين ظنوا أن رسول الله قد قُتل، أولئك ربما كانت حقيقة قضيتهم هي وجود رسول الله بينهم، فلما قُتِل رسول الله، كما ظنوا، انتهت قضيتهم، فقعدوا واستسلموا، ربما غابت عنهم للحظات القضية الأصيلة، والتي لفت الله تعالى أنظارهم إليها وهو يوجههم ويوجهنا ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٞ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِ ٱلرُّسُلُۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوۡ قُتِلَ ٱنقَلَبۡتُمۡ عَلَىٰٓ أَعۡقَٰبِكُمۡۚ وَمَن يَنقَلِبۡ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗاۗ وَسَيَجۡزِي ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ١٤٤﴾ آل عمران: ١٤٤

من كان الله غايته، ورضاه قضيته، كانت تصرفاته على وحي الله، ومنضبطة بمنهج الله، وأخلاقه الحميدة راسخة في وجدانه، ليس سلوكًا ظاهريًا، غير متعلق بسلوك الآخرين، ولا متوقف على حسابات المصالح.

وحدة القضية الكلية، تجمع كل القضايا الجزئية الأخرى، تحت مظلتها، لتعضدها ببعضها، وتكامل أدوارها، وتجعلها على سياق واحد، متناسق ومتناغم، يقوي بعضها بعضًا، ويدعم بعضها بعضًا، نحو غاية واحدة، ولتحقيق قضية واحدة.

إذا ابتعدت غاية الإنسان عن الله، ابتعدت قضاياه عن إرضاء الله، نحو غايات وقضايا أخرى لا حصر لعددها، ومن ثم يفقد التأييد الإلهي، ومهما دعا الله، فإن سنن الله غالبة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَنۡ هُوَ مُسۡرِفٞ كَذَّابٞ ٢٨﴾ غافر: ٢٨

إذا غابت القضية الأم، تعددت القضايا الأهم في حياة الأمة، وانفرطت عن العقد الذي كان يجمعها، وتفككت وتباعدت وتعارضت، ومن ثم يتفرق أبناء الأمة عليها، وتتعارض مشاربهم، وتتفكك وحدتهم، وتضعف قوتهم، ويفشلوا في تحقيق أيّ من هذه القضايا، التي لو حافظوا على عقدها المنظوم، وجامعتها الإسلامية، لحققوها جميعا.

وما جنت الأمة من استقلال قضاياها: العرقية والوطنية والسياسية والمجتمعية وغيرها، عن بعضها، وعن القضية الإسلامية الجامعة، إلا التفرق والضعف والذل والخراب.

وحدة المهمة:

إذا كان الحق المطلق واحدًا، هو الأولى بالاتباع، والغاية المطلقة واحدة، هي الأولى بالقصد، فإن ذلك يقتضي أن تكون المهمة واحدة، هي الأولى بالأداء.

لم يخلق الله الإنسان عبثاً ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾﴾ المؤمنون: ١١٥

أو ليتركه سُدى ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾﴾ القيامة: ٣٦

فسبحانه منزّه عن العبث، وإنما خلقه لمهمة محددة، ووظيفة معينة، يجب أن تكون هي الأهم في حياته، وألا ينشغل عنها بغيرها، ولا يبدّي عليها شيئًا.

إننا نعرّف بعضنا بوظائفنا الأساسية التي تميزنا، فنقول مثلا فلان الكهربائي وفلان النجار والدكتور فلان وهكذا...

بهذا المنطق، عرّف الله تعالى الإنسان بمهمته الأساسية التي ميّزه بها ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ البقرة: ٣٠

لم يقل جل وعلا إني جاعل في الأرض مصليًا ولا مزكيًا ولا غير ذلك، وإنما قال خليفة، أي أنّ مهمة الإنسان الأساسية التي من أجلها خلقه الله هي أن يكون خليفة عن الله في أرض الله، وكل العبادات والطاعات وسائل تعين الإنسان على أداء هذه المهمة،

وتضمن نجاحه فيها ﴿وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلۡخَٰشِعِينَ ٤٥﴾ البقرة: ٤٥

فالمسلم إذا صلى وصام وزكّى وحج واعتمر، ثم أهمل مهمة الخلافة عن الله، يكون قد اعتنى بالوسيلة وأهمل الغاية، أهمل وظيفته الأساسية التي هي مبرر وجوده في الحياة.

موضوع مهمة الاستخلاف: عمارة الأرض، وإقرار العدل، ونشر الخير، الأمر الذي لن يستطيع الإنسان تحقيقه إلا إذا كان على النحو الذي يبينه له ربه في منهجه. يؤكد لنا الواقع، ما أخبر الله عنه في كتابه ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ١١٧﴾ المؤمنون: ١١٧

أن الذين سادوا الأرض على غير منهج الله، لم يفلحوا إجمالا، فرغم النهضة المعرفية التي حققوها، والطفرة العلمية التي بلغوها، أفسدوا أكثر مما أصلحوا، وأضرّوا أكثر مما نفعوا، فقد عذبوا البشرية، وأعدموا الإنسانية، وعادوا الطبيعة، وخاصموا البيئة.

إن منهج الله هو أساس مهمة الاستخلاف، عليه فقط يوفق الله الإنسان، ويرفع عمله، وينفع الناس به، وعلى غيره لن يجني الإنسان في نهاية مسعاه غير البوار

﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ جَمِيعًاۚ إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلۡعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرۡفَعُهُۥۚ وَٱلَّذِينَ يَمۡكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞۖ وَمَكۡرُ أُوْلَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ ١٠ ﴾ **فاطر: ١٠**

إنّ الإنسان مستخلف من الله، على أرضه، لحمل دعوته، وتبليغ رسالته، وتعمير الأرض ونشر الخير وإقرار العدل فيها، على النحو الذي يبينه له ربه في المنهج الذي أنزله إليه ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ وَٱسۡتَعۡمَرَكُمۡ فِيهَا فَٱسۡتَغۡفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِۚ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٞ مُّجِيبٞ ٦١ ﴾ **هود: ٦١**

إن الاستخلاف سُنّة الله في الناس ﴿إِنَّ ٱلۡأَرۡضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۖ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ ١٢٨ ﴾ **الأعراف: ١٢٨**

تتقاطع معها سنة الاستبدال، لمن أعرض وفرط وأهمل ﴿وَإِن تَتَوَلَّوۡاْ يَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمۡثَٰلَكُم ٣٨ ﴾ **محمد: ٣٨**

يستخلف الله غيره ﴿وَيَسۡتَخۡلِفُ رَبِّي قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيۡـًٔاۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ حَفِيظٞ ٥٧ ﴾ **هود: ٥٧**

إن الاستخلاف وعد الله للمؤمنين الصابرين المرابطين ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمۡ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرۡتَضَىٰ لَهُمۡ

وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنٗاۚ يَعۡبُدُونَنِي لَا يُشۡرِكُونَ بِي شَيۡـٔٗاۚ وَمَن كَفَرَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ٥٥﴾ النور: ٥٥

فضلاً منه ونعمة، وابتلاء لهم؛ لينظر كيف يعملون ﴿قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُهۡلِكَ عَدُوَّكُمۡ وَيَسۡتَخۡلِفَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرَ كَيۡفَ تَعۡمَلُونَ ١٢٩﴾ الأعراف: ١٢٩

وحدة المعركة:

الحق الواحد من الله تعالى، له غاية واحدة هي لله، وقضية واحدة هي إرضاء الله، ومهمة واحدة هي الخلافة عن الله، ومعركة واحدة هي الدعوة إلى الله.

إنه لا استقرار لمنهج الله -الذي هو أساس مهمة الاستخلاف- على الأرض، ولا في قلوب الناس، إلا باستقرار الدعوة إلى الله.

فإذا تعطلت الدعوة، غاب المنهج الإلهي عن حياة الناس، ومن ثم تعطلت مهمة الاستخلاف، وضلت البشرية عن ربها، وتعبت وتعست وشقت ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشۡقَىٰ ١٢٣ وَمَنۡ أَعۡرَضَ عَن ذِكۡرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةٗ ضَنكٗا﴾ طه: ١٢٣ - ١٢٤

الدعوة هي أداة استدعاء الحق، واستحضاره في وعي الناس، وسبيل تمكينه على الأرض ﴿قُلۡ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ وَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ١٠٨﴾

يوسف: ١٠٨

الدعوة هي معركة الحق الوحيدة، وأي معركة على غيرها، أو لا تخدمها، أو تعطلها أو تشوهها، هي انحراف عن الحق المبين. الدعوة هي عهد الله وميثاقه إلى المؤمنين في كل زمان ومكان ﴿وَإِذۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكۡتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمۡ وَٱشۡتَرَوۡاْ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلٗاۖ فَبِئۡسَ مَا يَشۡتَرُونَ ١٨٧﴾

آل عمران: ١٨٧

ولقد عدد الله صفات أهل الحق، وبدأها بالوفاء بعهد الله ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ ﴿٢٠﴾﴾ الرعد: ١٩ - ٢٠

وعدد صفات أهل الباطل، وذكر أولها نقض عهد الله ﴿وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٢٥﴾﴾ الرعد: ٢٥

ولعظم ميثاق الدعوة، نتق الله الجبل فوق بني إسرائيل، لما فرطوا فيه ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧١﴾﴾ الأعراف: ١٧١

التفريط في ميثاق الدعوة، صدٌ عن سبيل الله، وإن لم ينتق الله على الأمة المسلمة الجبل، لمّا فرطت فيه، مثلما فعل مع بني إسرائيل، إلا أنه نتق عليها سفلة أهل الأرض، فذاقت السوء منهم ﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌۢ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا۟ ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٩٤﴾﴾ النحل: ٩٤

إن العدل الإلهي الذي جرى على بني إسرائيل ﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ البقرة: ٤٠، هو نفسه الذي يجري على الأمة المسلمة اليوم ﴿وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩٥﴾ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ ۗ وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓا۟ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ النحل: ٩٥ - ٩٦

كانت الدعوة عند رسول الله هي المعركة الوحيدة، والأولوية الأولى، والاستراتيجية الأهم، كيف لا وهي المهمة التي من أجلها ابتعثه الله جل وعلا﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ٤٥ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا ٤٦﴾الأحزاب: ٤٥ - ٤٦ فلم يهملها، ولم يؤجلها، ولم يعطلها، ولم يغامر بها، ولم يضيعها، بل كانت كل تحركاته وتصرفاته، المجتمعية والسياسية والعسكرية وغيرها، وقفًا لها، وعلى النحو الذي يخدمها، ويرفع من شأنها، ويزيل عنها العقبات، ويذلل لها الصعاب، حتى زيجاته صلى الله عليه وسلم لم تخلُ من هدف دعم حركة الدعوة.

مثلت الدعوة لدى رسول الله المظلة التي تهيمن على القرارات، والبوصلة التي تحدد الاتجاهات، والسياق الذي يحمل التصرفات، والميزان الذي يصنع الحسابات، فلم تكن تكتيكًا ولا ذريعة لغيرها، بل كانت هي الغاية وهي الوسيلة.

الدعوة هي الخط الأحمر، غير المسموح بتجاوزه، أو تأجيله أو تعطيله أو المغامرة به.

كيف لمن أهملوا الدعوة، وغامروا بها في معارك صفرية، وصراعات سياسية، حتى عطّلوها وأهدروها، أن يدّعوا أن معركتهم على الحق، وما للحق معركة غير الدعوة.

حقيقة التمكين إنما هو لدين الله ﴿وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمۡ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرۡتَضَىٰ لَهُمۡ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنٗا﴾ النور: ٥٥

وليس للأشخاص، فإذا تمكّن الدين من الناس، اجتمعوا عليه، وحملوه وحملوا رجاله ومشروعه وحضارته.

وما جعل الله تمكين الأشخاص إلا وسيلة لتمكين الدين ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾﴾ الحج: ٤١

إنه لا تمكين لدين الله إلا بالدعوة إلى الله، فالدعوة سبيل التمكين الحقيقي. إن الحضارة في ديننا ليست مقصودة لذاتها، وإنما هي الوسيلة الأقدر على تبليغ منهج الله لكل شعوب الأرض.

لأن الأمة المتراجعة حضاريا، والتابعة لحضارة غيرها، أعجز عن أن تبلغ منهجًا أو تهدي سبيلاً ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ ۖ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٦﴾﴾ النحل: ٧٦

ما كان لبلقيس وهي صاحبة حضارة كبيرة في اليمن، أن تستمع لدعوة، فضلا عن أن تؤمن بها، لولا أن الذي دعاها للإيمان يفوقها قوة وحضارة، حتى أن الممشى الزجاجي الذي لم تر مثله قط إلا في قصر سليمان عليه السلام، حسبته ماءً، من براعة صنعه ﴿قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِى ٱلصَّرْحَ ۖ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ

مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ ۗ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٤﴾ ﴾ النمل: ٤٤

إنّ صاحب الحق الضعيف لا يغري الأقوياء للاستماع إليه، وصاحب الدعوة البليد لا يدفع الشعوب للإيمان بدعوته.

إن سبيل الأمة لاستعادة حضارتها من جديد: الدعوة إلى الله، الدعوة التي تحمل الإيمان إلى الناس، ليتمكن الإيمان من نفوسهم، فيصنعهم ويحملهم كما صنعهم وحملهم أول مرة.

غاية الحضارة الإسلامية: توصيل منهج الله لكل شعوب الأرض، في قوة ومنعة وسيادة، وفي أحسن صورة حضارية، مبرّأ من التزييف والتدليس.

فالدعوة هي الوسيلة وهي الغاية.

الدعوة التي نريد

الدعوة هي كل ما يعرّف الناس بربهم، ويقربهم منه، ويربطهم به سبحانه.

والداعي هو الشخص الذي يكون الناس معه أقرب إلى الله تعالى.

الإيمان هو الذي يوقظ العقول، وينبّه الضمائر، ويجيّش العواطف، ويشحذ الهمم، هو الروح التي تسري في جسد الأمة الهامد، فيعيد له الحياة، والقوة والحيوية من جديد، لذلك كله ولغيره يجب أن تحمل الدعوة الإيمان إلى الناس.

فموضوع الدعوة هو الإيمان بالله ﴿وَٱدۡعُ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ القصص: ٨٧

ومادة الدعوة هي وحي الله﴿قُلۡ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلۡوَحۡيِ﴾ الأنبياء: ٤٥

إذا ارتكزت مواضيع الدعوة على غير الإيمان بالله، أو استُخدمت فيها مواد تزاحم وحي الله، ابتعدت عن مسار الحق، وفقدت التوفيق الإلهي.

القرآن هو مادة الدعوة ﴿كَذَٰلِكَ أَرۡسَلۡنَٰكَ فِيٓ أُمَّةٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهَآ أُمَمٞ لِّتَتۡلُوَاْ عَلَيۡهِمُ ٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ﴾ الرعد: ٣٠

وكل من يسلك إلى عقول الناس وقلوبهم طريقا غير وحي الله، فما بلغ الرسالة ولا أدى الأمانة ولا أقام الحجة ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥ﴾ المائدة: ٦٧

لم يرسل الله إلى أهل الجزيرة العربية رسولا إلا منهم ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ الجمعة: ٢

يعرفونه ويعرفون نسبه وصدقه وأمانته؛ لأن ذلك أرجى أن يسمعوه، وأدعى أن يؤمنوا به، وأحرى أن يستجيبوا له، وهذا من تمام نعمة الله عليهم ﴿ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ آل عمران: ١٦٤

ولم يأتِ نبي إلا وهو جزء من مجتمعه﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا﴾ هود:٥٠

﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا﴾ هود: ٦١

﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ هود: ٨٤

الداعي يجب أن يكون جزءًا من المجتمع الذي يدعوه، معروف النسب والخلق والسمت فيهم.

ولعل الذي دفع نبي الله إبراهيم عليه السلام أن يدعو ربه أن يبعث في أهل الجزيرة رسولا منهم﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾البقرة:١٢٩ أنه عانى مشقة دعوة الغرباء، في هجراته إلى الشام ومصر وشبه الجزيرة.

لا يكفي أن يكون الداعي صاحب خلق حسن، وإنما أيضًا أن يكون صاحب تفوق نوعي في المجال الذي يبرع فيه من يدعوهم، فصاحب الحق البليد لا يغري أحدًا، لذلك جاءت معجزات الأنبياء في المجال الذي يبرع فيه أقوامهم.

لم يأتِ نبي إلا وكان شعاره ﴿وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٠٩﴾ الشعراء: ١٠٩

ذلك ليدرأ عن نفسه شبهة المنفعة المادية، وإذا كان أنبياء الله المعصومون فعلوا ذلك، فغيرهم من الدعاة أولى.

لا تستقيم الدعوة والمدعو يرى من خلفها منفعة مادية يرجوها الداعي لنفسه، لذلك يجب على الدعاة أن يدرؤوا عن أنفسهم شبهات المنافع، وألا يضعوا مقصدهم موضع تهمة، وأن يخلصوا دعوتهم من المنافع الشخصية.

لقد وقعت الأمة رهينة بين الذين نزعوا السياسية الحزبية عن الدين تفريطًا، وبين الذين سحبوها على كل الدين إفراطًا، فضيعوا دعوتهم في مغامرات سياسية غير محسوبة، وفقدت بذلك الأمة طريقها الوسطي.

إن الدعاة داخل مضمار المنافسة الحزبية، خصم ضد جزء كبير من المجتمع، الأمر الذي يمنع الناس عن الاستماع إليهم بتجرد، ويستحيل معه تبرئة مقصدهم.

الإنسان المؤمن

هو العنصر الثالث من عناصر الصراط المستقيم، بعد المنهج والإيمان كما يتبين من الشكل.

جاء الإسلام ليباشر بعناية ربانية عُليا، وبجهود بشرية كُبرى، وعبر الإيمان، إعادة صياغة الإنسان فكريًا ووجدانيًا، من أجل بناء شخصية جديدة، غير التي عاشت وعرفها الناس في الجاهلية، هذا البناء الإنساني هو غاية منهج الله، وهو مقصد الإيمان.

صياغة الإنسان غاية الإيمان:
للإيمان بالله تعالى غاية كبرى، هي إعادة صياغة الإنسان فكريًا ونفسيًا على النحو الذي يؤهله لأداء ما كلفه الله به.

الإنسان عقل ونفس، أو فكر ووجدان.

ورغم أن لكل منهما وظيفته الخاصة والمختلفة عن الأخرى، إلا أنه لا يمكن فصل المعالجة الفكرية عن الوجدانية؛ لأن الضبط الفكري لا بُد أن يكون له أثر في الوجدان، وأن يتبعه انفعال عاطفي يولّد الهمة والطاقة نحو العمل، وإلا أصبح ترفًا فكريًا لا قيمة حقيقية له.

أخبرنا المولى عز وجل عن الذين لم يتجاوز المنهج الإلهي حدود المعرفة الفكرية لديهم، ولم يصل إلى وجدانهم، ولم يلامس قلوبهم، ولم يخالط نفوسهم، أنه لم ينفعهم بشيء.

فوصفهم مرة بالكلب الذي يلهث في كل أحواله، بداعٍ وبدون داعٍ، حتى أصبح اللهاث جبلته، اللهاث وراء الدنيا ومتعها، لمّا آثر هوى نفسه عن اتباع ما تيقنه بعقله من منهج الله

﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَث أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾﴾ الأعراف: ١٧٥ - ١٧٦

ومرة بالحمار الذي لا ينفعه ما يحمله ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ۚ بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥﴾﴾ الجمعة: ٥

أيضًا لا طريق صحيحًا إلى الوجدان إلا العقل، فالمعالجة الوجدانية التي لا تبدأ باليقين العقلي انحراف، ولو كانت نحو الصواب؛ لأنها

تقليد يعتمد على الاستدراج العاطفي وتخدير الفكر، والتقليد في الحق ضلال.

إنك إذا استمعت إلى الهدهد وهو يدفع عن نفسه تهمة عصيان سيده، ويبرر غيابه، كما حكى الله عنه ﴿ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٦﴾ ﴾ النمل: ٢٤ - ٢٦

ربما لا تملك بعد سماع هذا الكلمات العاطفية العذبة الرقراقة، التي تمس الوجدان، وتأسر المشاعر، ويملؤها الصدق، إلا أن تصدقه، لكن سليمان عليه السلام ليس بالذي يصدق بعاطفته، فقال رغم كل ما سمعه من الهدهد ﴿قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾ النمل: ٢٧

إنّ الذي ينفعل وجدانه إلى ما لم يميّزه عقله، ولم يقم عليه الدليل القاطع، والبرهان الدامغ، لا يختلف كثيراً عن الذين جمعتهم بأوثانهم علاقة ودّ عاطفي منبتة عن التميز العقلي ﴿وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ العنكبوت: ٢٥

إن وُجِد شيء واحد في هذه الحياة يستحق أن نبذل من أجل التحقق منه واستبيانه يقيناً، المجهود والتعب، لنتجنب فيه أقل دركات الظنون، فهو ما نعتقد، والمنهج الذي نتبع ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن

فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنۡ هُمۡ إِلَّا يَخۡرُصُونَ ٦٦

يونس: ٦٦

هكذا يجب على الفكر والوجدان أن يعملا معًا بشكل متوازن ومتكامل، دون أن يتغول أي منهما على الآخر، فالتوازن ينتج الإنسان صحيح التصور، منضبط الفكر، سليم الوجدان، عالي الهمة، إيجابي الطاقة، وإذا تغول أحدهما وألغى الآخر، انحرف الإنسان عن وسطية الطريق.

هكذا بجناحي الفكر والوجدان يحافظ الإنسان على اتزانه، وصواب بصيرته، بينما هو يواجه عواصف المحن، وظلمات الفتن، فيثبت على طريقه الصحيح، بخاطر مستقر، ووجدان مطمئن.

السبيل الوحيد لإعادة صياغة الإنسان على هذا النحو المتزن هو الإيمان بالله تعالى، ولا سبيل غيره.

إن الحالة الإيمانية المُثلى، هي التي تنسجم فيها العاطفة مع ما سلّم به العقل، هكذا قال رسول الله ﷺ "لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعًا لما جئت به".

يجيّش الإيمان العاطفة، ويهيجها ويحركها، على النحو الذي لا يستطيع غيره القيام به أبدًا، فتولّد هذه العاطفة الجياشة أعظم طاقة عرفتها البشرية.

لو عطّل الإنسان عقله، وسار بعاطفته فقط، ضلّ بهواه، ولو أهمل عاطفته، وسار بعقله فقط، ربما يهتدي إلى الحق، ولكنه حتماً سيسقط سريعًا من عليه؛ لأنه أهمل العاطفة التي تنتج الطاقة اللازمة لتخطي العقبات، وتجاوز الأزمات.

إن الأمة وهي في أشد محنتها لا تنفعها الطاقات العادية، وإنما تحتاج أعظم الطاقات، وأعلى الهمم، وأشد العزائم، كي تتمكن من التحرر والانطلاق من جديد، فالتكاليف العظيمة تحتاج طاقات عظيمة تناسبها.

إنّ هذه الطاقات العظيمة المنشودة لا تهبط على الناس من السماء، وإنما هي كامنة داخلهم، تحتاج فقط العواطف الجياشة التي تفجرها وتولدها.

حقا لا يعرف الإنسان كمّ الطاقات العظيمة المخدرة والمعطلة داخله.

لعل الله كلف المؤمن بخمسين صلاة قبل التخفيف لخمس، ولعله كلفه بالصمود أمام العشرة من الأعداء، لا يفر منهم، قبل التخفيف لاثنين، ليلفتنا سبحانه إلى أن حقيقة الطاقة المتولدة عن الإيمان تستوعب هذه التكاليف العظيمة، وتقدر عليها، فالله لا يكلف عبثا، وما ينبغي له سبحانه ذلك، وإنما جاء التخفيف رحمة منه وفضلا.

إنّ هذه الطاقات العظيمة الكامنة داخل النفوس، التي الأمة في أمس الحاجة إليها، لن يستطيع إخراجها واستنفارها وإشعالها وتفجيرها إلا الإيمان بالله تعالى، فكل الدوافع الأخرى، التنظيمية والسياسية والقومية والعصبية وغيرها، أثبتت فشلا ذريعًا.

أيضًا.. العقيدة مخزن التصورات، وكيفما يعتقد الإنسان يتصور، وكيفما يتصور يفكر، فالإنسان ينطلق من تصوراته، ليبني عليها جملة أفكاره.

إذا أخطأ الإنسان الاعتقاد، كان تصوره للحياة خاطئا، ومن ثم ينحرف فكره.

تمد العقيدة الإسلامية الإنسان بالتصورات الصحيحة التي لا يأتيها الباطل، الثابتة التي لا تتغير، الشاملة التي لا تتجزأ، لكيلا يحتار، ولكيلا تتركه فريسة للمدلسين والمبطلين، الذين يفترون على الله الكذب، والذين قال الله فيهم ﴿مَّآ أَشۡهَدتُّهُمۡ خَلۡقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَا خَلۡقَ أَنفُسِهِمۡ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلۡمُضِلِّينَ عَضُدٗا ٥١﴾ الكهف: ٥١

فتوضح له بشكل ولا أبين، الحقائق الكلية الثلاث، التي لا يستقيم حاله، ولا يستقر خاطره، ولا يطمئن وجدانه، إلا إذا علمها يقينا: الحقيقة الإلهية، والحقيقة الكونية، والحقيقة الإنسانية، وعلاقة كل منها بالأخرى.

ولمّا كانت تصورات الأمة المسلمة إنما حصرًا من الله، مستمدة من وحي الله، لم يعد غريبًا أن يكون فكرها الإيماني هو الأسمى والأعلى، والأسهل قبولا والأكثر واقعية، والأشد سلطانا على العقول والنفوس.

إن فكرنا مستمد حصرًا من وحي الله، وليس من الواقع، فالواقع لا يصنع الفكر، ولن يصنع الواقع المظلم إلا فكرًا ظلاميًا، وإنما يعالج الواقعَ الفكرُ السليم.

هكذا وعلى هذا النحو السابق، يهيمن الإيمان على العقل فيصحح تصوراته، ويضبط أفكاره، وعلى الوجدان فيشكله، ويلهب العواطف ويهذبها، ويفجر الطاقات ويوجهها، فيعيد الإيمان بذلك صناعة الإنسان من جديد، كما صنع قديمًا من الأميين الشخصية المؤمنة الجديدة والمتميزة، غير التي عاشت وعرفها الناس في الجاهلية.

الشخصية المؤمنة هي صناعة ربانية سماوية، وليست صناعة وضعية أرضية، هي الشخصية التي تغلغل الإيمان في سويداء قلبها، وخلايا عقلها، حتى امتلك كل كيانها، فصنعها على عينه.

إن هذه الشخصية المؤمنة هي الحلقة المفقودة، والمفتاح الضائع، والأمل الحقيقي، لإنقاذ الأمة المسلمة.

إن هذا البناء الإنساني الفريد، هو مقصد الإيمان ووظيفته، وإنّ الإيمان الذي لا يباشر هذه الوظيفة، مزيف غير حقيقي، ومغشوش غير صالح للاستخدام الآدمي.

الواقـــع

هو العنصر الرابع من عناصر الصراط المستقيم، وهو ثمرته النهائية.

إن العلاقة بين منهج الله والواقعِ علاقة وطيدة، ارتقت إلى الدرجة التي يحدد فيها الواقع جزءًا مهما من المنهج، وهو متغيراته الفكرية والفقهية.

إن الدنيا مجال عمل الدين، والواقع مجال عمل المنهج.

لم ينزل القرآن الكريم على النبي محمد -صلى الله عليه وسلم- جُملة واحدة كباقي الكتب السماوية، وإنما نزل مفرّقا ليعالج قضايا الواقع في حينها، تثبيتا للنبي وللمؤمنين﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلۡقُرۡءَانُ جُمۡلَةٗ وَٰحِدَةٗۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَۖ وَرَتَّلۡنَٰهُ تَرۡتِيلٗا ٣٢﴾

الفرقان: ٣٢

فأكثر ما يثبّت الناسَ حين المحن أن يجدوا في منهجهم الذي يدينون به حلولا لأزماتهم، ونجاة من أهوالهم، وإن أشد ما يصيب الناس بالقنوط واليأس أن يشعروا أن منهجهم منبتّ الصلة عن واقعهم، لا يقدم لهم حلولاً ولا يهديهم سبيلا.

لا يسعى لفصل المنهج عن الواقع إلا من أراد أن يفسد المنهج أو يفسد الواقع أو يفسد الاثنين.

إن أولى خطوات إفساد المنهج فصله عن واقع الناس، وإن أولى خطوات إفساد حياة الناس فصلها عن منهج الله.

إن إصرار البعض على حشو الثقافة الإسلامية بقصص وروايات أسطورية لم تخضع للتدقيق الكافي، والتي تحوي خوارق وخرافات منسوبة إلى بعض الصالحين، وترديدها ونشرها، إنما ليسلخوا بها منهج الله عن واقعيته، ويحصروه في خوارق مستحيلة التطبيق، وخرافات مستحيلة التصديق، فيصير المنهج عند الناس معاني خيالية بعيدة المنال أو غير صالحة للتطبيق الواقعي.

إنّ السنّة النبوية كانت حياة واقعية عاشها النبي -صلى الله عليه وسلم- بكل تفاصيلها البشرية وبكل طبيعتها الإنسانية، ولم تكن قصصا افتراضية ولا قواعد نظرية، ولا أساطير خرافية.

كيف لمن عزل منهج الله عن حياته أن يسأل -مستغربًا- كيف يكون الإسلام هو الحل؟! كيف ينتظر حلا من منهج عزله عن واقعه؟!

رغم التطورات المعرفية والقفزات العلمية التي حققها الإنسان إلا أن أشد الدساتير إحكامًا لم تمنع الظلم والاستبداد، وأكبر القوانين كياسة لم تمنع زيادة معدلات الجريمة وانحدار الإنسانية إلى الرذائل!

ذلك لأن الدساتير والقوانين باتت منعزلة عن هدي منهج الله، وأن الحل الحقيقي الذي يقدمه الإسلام ليس في هدم الدساتير ولا إسقاط القوانين، وإنما بتعديل مسارها إلى مساره، وضبطها بضوابطه، لتكون على روحه وهديه.

إن حقيقة الحل الإسلامي إنما في تزكية النفوس بربطها بخالقها، فالإيمان بالله يصنع الفضيلة في الناس، ويقيم المجتمعات على أسس أخلاقية فاضلة، يستحيل معها تفشي المظالم وانتشار الفواحش، ولا سبيل لذلك إلا إذا اعتنى المنهج الإلهي بكل تفاصيل الواقع وأحاط به من كل جوانبه.

إن علاقة منهج الله بالواقع إنما تمر عبر الإنسان الذي صنع الإيمان فكره وشكّل وجدانه، ولن يستطيع إعادة ربط المنهج بالواقع من جديد إلا هذا الإنسان المؤمن.

المشـــروع

لا يمكن للإيمان أن يمارس وظيفته، أو أن يحقق غايته في الواقع إلا من خلال مشروع حياة شامل، واضح المعالم ومحدد المراحل والخطوات.

إن الذين يتحركون بغير مشروع يؤمنون به، يودي بهم الواقع، وما يحمله من محن وشدائد، إلى التيه والتخبط.

فلا ينشأ التخبط عن المحن والشدائد، بقدر ما ينشأ نتيجة غياب المشروع الذي يعلي الغاية، ويضبط الوجهة، ويرسم الطريق، وينظم الخطوات.

بغير مشروع، يتعامل الإنسان مع الواقع، بضيق أفق، وقصر نظر، واستسلام يفرض معه الواقع عليه القرارات، ويملي عليه التوجهات، وكلما تغير الواقع -كما هي سنة الله- تغيرت قراراته وتبدلت توجهاته، بلا ثبات على وجهة ولا استقرار على قرار.

لا شك أن الواقع جزء مهم من القرارات، بيد أن الجزء الأهم منها هو الذي ينبع من المشروع وغاياته، والمبني على مراحله واحتياجاته.

إنما يمنحنا الله الفرص لنحمل عليها مشروعنا، والذين بلا مشروع لا تضيف لهم الفرص شيئًا، عاجزون عن الإفادة منها، وهي والعدم بالنسبة لهم سواء!

إن الأهم من النصر هو ما نبتغيه منه، والمشروع الذي نريد أن نحمله عليه، وإلا صار تطلعًا للذات، ورغبة للنفس، ومجدًا للشخص، بلا فائدة حقيقية، يصعب استثماره، والحفاظ عليه.

المشروع في أبسط تعريف له هو غاية وحركة، غاية كبرى، يتحرك الإنسان نحو بلوغها.

والغاية بدون حركة: نظرية، والحركة بدون غاية: عشوائية، والمشروع الصحيح لا يقف عند النظريات، ولا يعترف بالعشوائيات.

كلما صحت الغاية وقوي الإيمان بها، كلما زاد عزم الإنسان عليها، انضبطت حركته بها وإليها.
إننا اليوم ونحن نبحث عن الغاية الأصح، والمشروع الأنفع، لا نذهب بعيدًا ووحي الله بين أيدينا ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾
الإسراء: ٩

وسيرة النبي من خلفنا ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهۡتَدُواْ﴾ النور: ٥٤

إن أفضل من بلور دين الله إلى مشروع حياة هو رسول الله صلى الله عليه وسلم، وإننا اليوم نجتهد لنستلهم من سيرته العطرة، معالم المشروع الذي حمله، وحمل به الدعوة، وبلغ به الرسالة، وأقام به الدولة، وأسس به الحضارة.

مضى رسول الله نحو هدفه بخطوات مرسومة، ومراحل معلومة، لم يتجاوز خطوة، ولم يحرق مرحلة، مضى على سنن الله في الترتيب والتدرج ﴿لَا ٱلشَّمۡسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدۡرِكَ ٱلۡقَمَرَ وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ وَكُلّٞ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ ٤٠﴾ يس: ٤٠

بلا قفزات ولا شطحات ﴿فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسۡتَعۡجِل لَّهُمۡ﴾ الأحقاف: ٣٥

ولا خفة ولا رعونة ﴿فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ وَلَا يَسۡتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ٦٠﴾ الروم: ٦٠

بيقين لا تهزه النوازل ﴿فَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلۡحَقِّ ٱلۡمُبِينِ ٧٩﴾ النمل: ٧٩

وعزم لا يفلّه الصدود ﴿وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعۡدَ إِذۡ أُنزِلَتۡ إِلَيۡكَۖ وَٱدۡعُ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ القصص: ٨٧

فأقام صلى الله عليه وسلم وجهه الشريف نحو دين الله حنيفا مستسلمًا ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا﴾ الروم: ٣٠

ولم يلتفت يميناً ولا شمالاً ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾﴾ الجاثية: ١٨

ولم تشغله الدنيا بجمالها وزينتها ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾﴾ طه: ١٣١

ولم يخدعه الباطل بعلوه وزهوه ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ ﴿١٩٦﴾﴾ آل عمران: ١٩٦

ولم يُقعده الحزن، ولم ينحرف به اليأس ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَن يَقُولُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ ۚ إِنَّمَا أَنتَ نَذِيرٌ ۚ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٢﴾﴾ هود: ١٢

إننا نؤمن أن سيرة رسول الله لم تكن أحداثًا صنعتها الصدف، إنما كانت قدر الله المحتوم ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾ القمر: ٤٩

وضع سبحانه بها للأمة النموذج الأمثل للمشروع الأصلح: مشروع ظهور الدين وقيام الأمة وتأسيس الحضارة، المشروع الذي منح الناس النجاة والهداية، ومنح الأرض العدل والاطمئنان.

ما كان يتلقاه رسول الله عن ربه يخبره فيه ما يجب عليه فعله، وكيف يفعله، لم يكن سرًا، ولم يرفعه الله بعد موته، بل حفظه الله للأمة ليكون دليل هدايتها ﴿وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لَا

تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيۡنَا وَكِيلًا ﴿٨٦﴾ إِلَّا رَحۡمَةً مِّن رَّبِّكَۚ إِنَّ فَضۡلَهُۥ كَانَ عَلَيۡكَ كَبِيرٗا ﴿٨٧﴾﴾ الإسراء: ٨٦ - ٨٧

كتاب الله يبين لنا المنهج، وسيرة رسول الله تبين لنا الطريق

﴿لِكُلّٖ جَعَلۡنَا مِنكُمۡ شِرۡعَةٗ وَمِنۡهَاجٗا﴾ المائدة: ٤٨

وقد قال رسول الله ﷺ: "تركت فيكم أمرين لن تضلوا ما تمسكتم بهما: كتاب الله وسنة نبيه"، والسُنّة تعني الطريق والمشروع.

إننا اليوم نستشف خطوات النبي ونعيد رسمها على واقعنا، لنستنّ بسنّته ونهتدي بهديه ونحمل مشروعه من جديد،

﴿لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا ﴿٢١﴾﴾ الأحزاب: ٢١

معالم مشروع النبي:

إن الأمة المسلمة اليوم في أمسّ الحاجة لإحياء مشروع النبي، الدعوي، العقدي، الجامع، الكلي، الثابت، الواقعي، الحضاري.

الدعوي: الدعوة فيه هي الغاية والوسيلة، وهي البداية والنهاية، وهي مبرر وجوده، وغاية حركته.

العقيدي: أي أن الإيمان بالله هو أساسه المتين، ومنطلقه السديد، وسياقه الصحيح.

جـامع:أي يتخذ من عقيدة التوحيد، المساحة الأوسع والأرحب، التي تصلح وحدها لأن تجتمع عليها كل أطياف الأمة المسلمة.

الكلي: أي معنيّ بالكليات والثوابت، ويترك التفاصيل لمتطلبات الممارسة والتطبيق.

الثابت: لا يتغير بتغيّر الواقع زمانا ومكانا، فالواقع قد يؤثر عليه سلبًا وإيجابًا، وقد يساعده أو يعوقه، وقد يغيّر وسائله وأدواته، ويحدد فرصه وتهديداته، إلا أنه يظل ثابت البنية والمراحل والأهداف.

الواقعي: أي يتعامل مع الواقع، ليعالجه، ويغيّره، ويصنع للأمة واقعًا جديدًا تسود فيه وتقود.

الحضاري: الفعل والوسائل والغايات.

وعلى الله قصد السبيل، وأعوذ بالله من الجائر منها،
والحمد لله رب العالمين.

دار إضافة
للنشر والتوزيع

الإسكندرية

ج . م . ع

www.Idafabooks.com